خلف أوراق البطاطا

مجموعة قصصية

للكاتبة / سحر محمود

المؤلف: سحر محمود

الناشر: دار نهر الكتب للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف والإخراج الفني: القسم الفني بدار نهر الكتب (لوجوتيلز)

المراجعة اللغوية: سحر محمود

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٥٤٥٨

الترقيم الدولي: ٤-١١-٦٧١٧-٩٧٧-٩٧٨

المدير العـــام: هالة رجـب

رئيس مجلس الإدارة: محمد محمد هيكل

جميع الحقوق محفوظة لدار نهر الكتب للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة الدار يعرض صاحبها للمساءلة القانونية، والآراء والمادة العلمية الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

جمهورية مصر العربية

موبايل:٠٠٢٠١٠٦٩٦٤٨٠٠٨ ــ ٠٠٢٠١٠٢٢٤٤٣٤٧٢

البريد الإلكتروني: nhrelkotob@gmail.com

عـن الكاتبـــة

سحر محمود، خريجة قسم فلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة، نشرت في بعض المواقع والجرائد الإلكترونية، لها أعمال إلكترونية منفردة: ديوان "كلماتي ورواية "ميت على قيد الحياة" وشاركت مع بعض الكتّاب في كتب أدبية أخرى، نشرت باسم (ملك محروس) وهذا هو أول عمل ورقي منفرد لها.

****

إهـــداء

إلى تلك الروح النقية، التي أدين لها بكل ما أوتيت من خير، إلى" أبي" رحمه الله، الذي علمني القيم والمبادئ قبل أن يخُط قلمي بالكلمة والتي له الفضل فيها.

أفتقدك وأشتاق إليك.

****

مقدمـة

في الماضي كنتُ أتكاسلُ عن الكتابةِ الأدبية، ذلك الشعور الذي يبقيني في حالةِ قلق وتأنيب للضمير، فتشتعل رغبتي في التغلب على هذا الأمر، ومن ناحية أخرى كنت أخرسها وأُميتُها بالسكوت عنها، كنت في حالة صراع، أجاهد من أجل مقاومة التكاسل والانصياع لرغبتي نحو ممارسة هوايتي.

ولكن في لحظة ما أدركت الحقيقة، لم يكن الأمر كذلك، ليس التكاسل هو السبب وراء بطء العملية الكتابية لدي بل كان الخوف، الخوف من ذلك الشعور الذي يتملكني وقت ارتقاء الروح والمشاعر وصراعهما الأبدي لخروج بضع كلمات تعبر عما ألمّ بها من ضجيجٍ، كذلك هو حالي في كل مرة أكتب فيها، صراع بيني وبين القلم، والنتيجة حالة ولادة حرف، تأتي متعثرة مخضبة بالإحساسِ والواقع والخيال! وتظل المعاناة.

وفي محاولة ليست الآخيرة، تمت ولادة هذا العمل بعد كم من جهود مبذولة، وهأنا أهديكم إياها، فرفقًا بمولودتي، واقرؤها بروح مُحبة، وبعمق فيما وراء السطور، وبإحساس قلبِ شغوف، اقرؤها كما لو كنتوا أنا.

وكان الوداع الآخير (قصة حقيقية)

****

لا أعرف كيف مر الوقت بتلك السرعة الشديدة حينها! ولا كيف كان حالي وقتها، فكنت منزوعة من كل الأحاسيس، كل الأحاسيس والمشاعر هربت مني هول الموقف، سوى الصدمة التي لازمتني وتأبطت ذراعي بعنفٍ ولن تتخلى! صدمة جديدة من نوعها بالنسبة إليّ.

بدأ اليوم عاديًا جدًا، غير أني كنت أحس ببعض الملل والفتور والإرهاق كعادة معظم أيام "أم" مع أولادها، فسمعت زوجي يناديني: تحدثي مع أختك عبر الهاتف.. هي تنتظرك.

فحدثتني بقلقٍ قائلة: "والدنا مريض جدًا، وسيأتي الطبيب حالًا لفحصه".

في خلال دقائق كنت هناك، مع أبي، وجدته في غرفته، محاط بأقاربي يؤنسونه ويتوددون إليه بعبارات الحب والاطمئنان، دخلت بلهفة ممزوجة بتعجب: كيف حالك يا "أبي" ماذا حدث

لك؟! كنا بالأمس نتكلم ونضحك حتى ذهبنا إلى بيوتنا مطمئنين عليك!

رد بصوت يخفى وراءه مشاعر لا يعلمها إلا هو، وبنبرات هادئة مستكينة مستسلمة قائلًا: لا أعرف، فقط قمت لأتوضأ، ففجأة شعرت بضيق نفَس شديد جدًا فجلستُ ولم أستطع النهوض.

فطمأنته بأن حساسية الصدر التي كان يشكو منها منذ بضعة أيام ماهي إلا عارض بسيط سيزول كدور برد لا محالة.

فرد ملتزمًا هدوءه الذي عاهدته فيه منذ أول الحديث بل منذ آخر بضعة أيام قبل ذلك اليوم قائلًا: لا، الألم شديد، بل أشد من كل مرة.

جاء الطبيب بعد ساعتين مروا علينا بين قلق وريبة وخوف، جاء وبدأ الفحص، كان وجهه جهومًا، علاماته غير مبشرة، فأصابنا جميعًا الخوف حينذاك، وبدأت أحدث نفسي"هل أبي مريض جدًا لهذه الدرجة! لا يبدو عليه أي من علامات تدل على ذلك!"

وأنهى الطبيب فحصه قائلًا: هو يحتاج الذهاب إلى المستشفى على وجه السرعة لإجراء بعض الأشعة والتحاليل.

آخر ما كان يستوعبه عقلي حينذاك، هو مكوث أبي في المستشفى لأيام، وهو لأمر صعب علينا، لم نعهده من قبل حيث كان أبي متعافيًا سوى من "داء السكري" الذي لازمه لعشرين عامًا، متعايشون سويًا دون كلل، كصديقين يفهم كل منهما الآخر.

أرتبكنا جميعًا، بالطبع لم نرد له أي سوء، أحضروا السيارة وحملوه رجال العائلة الذين سمعوا عن الخبر واجتمعوا بسرعة لا أعلم كيف ومتى، فقط وجدت المنزل مليء بالأقارب ولكن لم يشغلني كل ذلك سواه.

حملوه على كرسي، حساسية الصدر، جعلت نفَسه يتصاعد ويهبط بصعوبة كما رأيناه، أو كما كنا نظن!

لحظات صعبة، مهولة، ثقيلة جدًا، تمنيت لو زال كل ذلك سريعًا ليعود أبي.

على درجات السلم فجأة، توقف أبي عن التنفس! وفي لحظات مرت كالبرق حملوه في السيارة، وجميع من حولي مندهشون مسرعون يحاولون إنقاذه بأي شكل، أسرعت بجواره أحادثه، أحاول أن أطمئن نفسه بإنه على خير وكل شيءٍ على ما يرام، وإنه وقت سيمر وسيعود كما كان! فحدثته بصوت أشبه بصراخ: أبي تحدث إليّ، قل شيئًا، ولكن لم يرد عليّ أبي لأول مرة في حياته!

انطلقت السيارة سريعًا محاولة إنقاذه، سيارات وعجلات بخارية تقدمتنا لإفساح الطريق بأقصى سرعة أمامه، تُمهد لطريق المستشفى، في مشهد مهيب تقشعر له الأبدان! وأثناء كل ذلك أوهمني عقلي بإنه سيخضع لأجهزة تنشط القلب وتنعشه وسيعيش لا محالة! وفي غرفة الطوارئ أخبرنا الطبيب بالأمر: "البقاء لله"

سقطت أمي مغشية عليها، صرخت أختي بشدة وبكى أخي وانقلبت المستشفى رأسًا على عقب، وانقلبت الدنيا فوق رأسي، كنت مشتتة تائهة غارقة في بحر من ألم وغصة احتلت حلقي منذ ذلك اليوم حتى الآن لم تفارقني قط، كنت غارقة أحاول

مساعدة الغارقين أمثالي: أمي وأخوتي، كنت أساعد أمي للنهوض و أطبطب على كتف أخي الصغير وأغرقه بعبارات المواساة لأشدد من أزره، وأنا في أشد الحزن والألم أحتاج لمن يواسيني ويأخد بيدي لأنهض و يشدد على أزري!

عادوا بأبي للمنزل، كان ذلك بعد منتصف الليل، فانتظرنا لساعات حتى طلوع النهار، وكأن الله أراد لنا أن نؤنس بأبي لبضع ساعاتٍ آخرى.

كان اليوم الأصعب على الإطلاق، جلسنا بجواره طوال الليل، أمسكت بيده أقبّلها وأقبّل جبينه، قرأنا القرآن وعمّ الهدوء وكان أبي مستلقيًا بجوارنا نائمًا هادئًا مستسلمًا راضيًا بشوشًا.

حتى تلك اللحظة لم يكن عقلي مستوعبًا ما يحدث، أكاد أقسم أني أراه يتنفس، مكثت أنظر إليه طوال الليل أنتظر لحظة استيقاظه، ويدور في عقلي مئات التخيلات: لا بد وأن أخطأ الطبيب، هذه "غيبوبة سكر" وسينهض الآن وسنفرح جميعًا، أو إن كل ذلك كابوسًا سينتهى وسأصحو منه بالتأكيد، وهكذا

ظل عقلي يدور ويدور حتى جاء الصباح، وجاء المغسل والكفن!

وأخذوه وتمت كل الإجراءات سريعًا وصلوا عليه، وفور الصلاة وقفت خلف الجنازة ألوح له بيدي أودعه: "مع السلامة يا أبي، سأفتقدك جدًا جدًا.. مع السلامة"

عدت للبيت بصحبة أمي وأخوتي، مرَّ اليوم ولا أعرف كيف مر ولا أريد تذكره، حتى جاء الليل ونمنا وما نحن بنيام، أظنها كانت غيبوبة أو إغماءة إثر يوم مرهق مؤلم.

فاستيقظنا جميعًا دفعة واحدة وبقايا الدمع في أعيننا، كالموتى يتنفسون محكوم عليهم بالحياة ولكن فاقدين لها! أو كالمرضى الذين يتمنَون الرحمة والتي لا يوهبهم إياها إلا الموت، كنا تائهين كطفل في ساحة كبيرة مظلمة موحشة وحده يحتاج لأبيه ليطمئن، ذهبتُ حيث كان يجلس على أريكته كعادته، سأذهب إليه وأحكي له عن قسوة الليلة الماضية وعن شعورنا بالتيه والصدمة التي نزلت على رؤوسنا كالصاعقة القوية أو المطرقة الضخمة التي جاءت على حين غفوة، ولكنني لم

أجده، ففاضت دمعتي بسيل لم ينتهِ حتى الآن، أدركت حينها إننا عندما كنا نضحك معه قبل الوفاة بيوم كانت ضحكاتنا الآخيرة، وحينما لمست يده آخر مرة كانت اللمسة الآخيرة، وحينما ودعته وهو محمولًا على الأكتاف كان الوداع الأخير.

****

هجرة غير شرعية

****

إنها الواحدة ظهرًا، جاء الجميع من الأهل والأصدقاء فور سماعهم خبر رحيلي، أخبرتهم أمي بذلك في فزع وصرخات مصحوبة بكلمات النوح والعويل التي طرقت بيوت الجيران، فجاءوا يشاركون تلك اللحظات المؤلمة يتوددون إليها متعاطفين معها، التفت السيدات حولها يغرقنها بالكثير من كلمات المواساة والأسف، ينظرن إليّ بأسى عما عزمت عليه، متذمرات تمنين لو استطعن ارجاعي عن الأمر ولكن لا فائدة قد قررت الرحيل وحزمت أمتعتي فجأًة دون سابق إنذار، بطريقة أرعبتهن. اخترتها عنوة رغمًا عن الجميع ورغمًا عني! وهذه المرة بلا رجعة.

لقد سئمتُ الحياة هنا، سئمت الفساد والفشل والظلم والروتين وازداد الامر سوءًا بالمرض، قد اضعفني كثيرًا، ذلك الوحش اللعين الكاسر والمحطم للآمال والذي يبقينا نحن الملوثون به على قيدِ الموتِ برغم الحياة، انتصر عليّ، اعترف بذلك، كنت

في السابق رمز للقوةِ والصمود كنت أبث لأقراني في المشفى القوةَ، كنتُ مصدر للطاقةِ الإيجابية، الجميع يقوون بي كذلك الجبل الصامد الشامخ يُعلن التحدي رغم الرياح والعواصف والمحن، ولكن كالجبال أنا يراها الجميع صامدة ولا يسمع أحد أنينها، لا يقطن أحد كم البراكين المشتعلة داخلي لا يدرك أحد الكسور والفتات المنثور فوق ركام القلبِ.

فقوتي الحقيقية ليست في التحدي ومقاومة المرض؛ بل كانت في إخفاء الآلام والدموع عن الجميع، أعترف الآن بذلك، ظللتُ أعزف لحن التحدي والصمود حتى أصيبت إحدى آلاتي بالانكسار.

والأشد كسرًا لي كانت نظرات لوم وعتاب أمي، تلك النظرة أعرفها جيدًا ،عرفتها يوم فشلي حينما كنت طفل أراد تعلم "الكاراتيه" ولكنه هُزم في أول سباق له، قد كانت دائمًا مصدر للقوة والأمل بالنسبة لي وكنت ولدها المطيع، انعكاس لها في قوتها ولكن كطبيعة الحال الانعكاس لا يصيب سوى الجزء الظاهر، تلك القشور الخارجية فقط أما الباطن يظل كحاله معتم مظلم لا نور فيه ولاحياة.

امتزجت نظرتها لي بغضب وعطف وحنين ومواساة جعلتها تشق صفوف الجميع بسيل من دموع يملأ مقلتيها قائلة: لمَ ذلك يا حبيبي، لمَ فعلتها؟! أقصرت معك في شيء، ألم أكن لك الأم المثالية وأنت الابن الشجاع كما كنت تقول دائمًا أ وهمٌ هذا أم كذبت عليّ؟ لم اعتَد منك ذلك ابدًا، ألم نتفق سويًا على هزيمة المرض، بدأ المشوار بالفعل وكدنا ننجح، لا أصدق، لا أصدق، أعلم أن المرض قوي لعين ولكن معًا سنهزمه وأنا معك أُساندك حبيبي. ظلّت تحدثني ولسان حالها "نبتة عمرها برغم رعايتها ذبُلت" فجذبتني بقوةٍ، وأمسكت ياقة القميص بعنفٍ تنهرني قائلة: كان بيننا عقد واتفاق وأنت خنته لماذا لماذا ؟ لم استطع العيش دونك لم استطع، بدأت في الصراخ والنحيب مرة أخرى.

هرع الجميع يبعدونها عني، ظلّت هي متمسكة بي بقوة وأخيرًا أبعدوها وقد كانت اللمسة الأخيرة.

شعرت بوخز في قلبي يشعرني بتأنيب الضمير ولكن فات الأمر، لم أنطق ببنت شفة، لم استطع النطق إزاء كلماتها المصحوبة بأنين ومشاعر جياشة ونظرات الجميع لي وكأنهم

ينتظرون مني أي رجعة عن قراري، فكيف لهارب مثلي جبان أن يدافع ويقاوم؟! أقولها بكامل حريتي، السكوت هنا أفضل، ففي النطق خيبات أمل وويل وشقاء.

ظلّت حالة الياس والقلق والخوف تصيب الجميع حتى تسللت إلى أذناي سماع ما أردت سماعه منذ بدء الموقف:

قد جاء المُغَسِل، نطقت بذلك إحدى قريباتي محاولة تهدئة والدتي وإبعادها عني، ليأخذوني شباب عائلتي يحملونني إليه.

فوضعوني على "المغسلة" حتى يقوم المغسل بعمله فقال: ادعوا لأخيكم، ادعوا له كثيرا جدًا فهو في أمس الحاجة لدعواتكم.

آه لو استطيع العودة ولكن قد قُضي الأمر،لا مفر، أشعر الآن بالخوف، أشعر بالنيران تسري في جسدي، ما هو مصيري؟ وكيف ستكون رحلتي؟ وكيف سيكون الوضع حين يكتب على صحيفتي مذنب والذنب هجرة غير شرعية.

****

انقباضة قلب

****

في ساحةِ المحكمةِ جلستُ وأمي بعيون حائرة، تلهث وراء سماع كلمة الحق والحرية، لحظة ننتظرها كما تنتظر الوالدة وقت خروج جنينها من رحمِها بعد معاناة!

ومرت بطيئة كسلحفاء عرجاء لا أمل لها نحو المسير ولا هدف. وبالجوار زوج أمي خلف القضبان مقيدًا يتدلى بوجهه نحو الأرض يتمتم بكلماتٍ ووعيد، ويسُب في أحيانًا أخرى؛ غاضبًا يعوى كما الثعالب والضباع!

خرج علينا القاضي بعد طول انتظار وضجر؛ ليعلن حكمه المنتظر، خرجت من بين شفتاه تلك الكلمات آخيرًا وحكم على زوج أمي بالمؤبدٍ مع الأشغال الشاقة؛ لقتله زوجي مع سبق الإصرار والترصد، مستخدمًا "المطواة" والتي كانت لا تفارقه مطلقًا بشهادة الجميع مما أضعف موقفه وأدّى به الأمر للوصول هنا.

صرخت أمي حزنًا وقهرًا وألمًا؛ قد فقدت زوجها لمرة أخرى؛ فالمرة الأولى كانت حين وفاة والدي، فعادت تحمل مرار السنين دون سند أو معين كما تظن!

وصاح الجالس خلف القضبان: "مقتلتوش، أنا مظلوم يا ظَلَمَة، مقتلتوش"

أما أنا، فقد غشيتني فرحة عارمة، جاءت متراكمة وهائجة كإعصار تسونامي، شعرت بمشاعر طير حبيس جاء وقت انطلاقه، بزغ نور الحق وضياء الحرية من بعد ظلمة واختناق.

اتكأت عليّ أمي بعد وهنٍ وخمول إثر عواصفها الاعتراضية التي أطلقتها منذ قليل، وخرجنا وركبنا الحافلة عائدات للمنزل، أسندت برأسها على منكبي، وغاصت في نومٍ عميق ظننته إغماء، حادثتها فهزت رأسها، فاطمأننت عليها، حقًا أنا آسفة من أجلها!

فغُصت أنا بعيون ثاقبة نحو النافذة، أنظر إلى الطريق الذي كسته الغيوم رغم حرارة الصيف الملتهبة، ذكرني ذلك بحال

قلبي الذي كان مفتونًا بالحياة، مفعمًا بالأمل ومتقدًا بالحيوية وبرغم ذلك كسته غيوم حزنٍ وقهرٍ، فعُدت بذكريات آليمة حان الوقت كي أودعها.

أنا جميلة، ذلك هو اسمي، برغم ما كنت أحمل من الاسم صفته، أصابتني لعنته، لعنة الجمال!

أتذكر ذلك اليوم جيدًا وكأنه كان البارحة، يوم كنت جالسة أتسامر مع بنات الجيران ونتبادل أطراف الحديث سويًا، أحاديث حالمة رائعة وساذجة أيضًا، كنت ابنة السابعة عشر عامًا، نادتني أمي، لأرى مَن جاء لخطبتي.

فرحت كباقٍ البنات، لم أكن أعي شيءٍ وقتها، حين رؤيته شعرت بانقباضة قلب، لم تكن تلك الانقباضة التي وخزتني سُدى، ولم يكن ذلك الشعور هباءً، حين رأيته جالسًا مع زوج أمي يناقش تفاصيل الزواج، كان يناقشه كما لو كان عقد بيع سلعةً لمشتريها. لهث زوج أمي ورائه، وافقه في كل شيء طالما يدفع ما يطلبه، وخاصة بعد أن وعده الخاطب بتوظيفه في شركته الخاصة؛ ففرح وخطبني له.

وافقت؛ كي أنقذ نفسي من بطش زوج أمي ونظراته التي كانت تقتلني وكأنها تلمسني بل كانت تتغلغل فيّ؛ حتى أكاد أشعر بها تسري في جسدي كله، كانت أمي تنصاع له لا ترى ولا تسمع غيره، لم أكن لهما أكثر من خادمة لا تجرؤ على الاعتراض قط، أحببت ذلك "المخلص" الذي جاء ينتشلني من ذلك كله والذي جاء ليأخذني بحصانه الأبيض لقصره الوردي كما في الأحلام.

تم الزواج سريعًا ومرت الليالي عليّ بطيئة كئيبة لا تختلف كثيرًا عما كنت عليه، غير أني هنا استطيع البوح والتألم، استطيع أن أصرخ.. كان زوجي ينظر لي ولا يبالي بل كان يتلذذ بألمي ومعاناتي، تبًا لذلك المعتوه المريض، ماذا اقترفت في حق نفسي؟ ما هذه الحياة؟ لم أكن أريدها كذلك.. كنت أأمل أن يتحسن وضعي من خادمة في بيت أمي إلى سيدة في بيت زوجي ولكن ما تغير شيء سوى انعدام الأمل الذي كان.. ازداد الأمر سوءًا بعد الحمل!

تفاقمت الحياة بيننا وصلت الأمور إلى الضرب والعراك والمشادات، ذهبتُ استغيث بأمي وزوجها، كي يُطلقّونني منه

ويحررونني من عذابي معه، لم يعيرني زوجها اهتمامًا، بل غضبَ وصبَّ وقاحاته دون رحمة قائلًا: أنا ما صدقت أجَوزِك، فتجيلي تاني مطلقة وفي بطنك عيل، أنا مكنتش حمل مصاريفك لمّا كنتي بطولك، هصرف على اتنين إزاي بس، ارجعيله ومتفكريش تجيلي غضبانة تاني، ولا تقوليلي طلاق، عجباكي حياتك أو مش عجباكي مش مشكلتي، مش كفاية تهزيقه ليا ليل نهار في الشركة أودام العمال ولا عامل اعتبار ليا ولا ليكِ، روحي روحي هو أنا ناقص قلبة دماغ ولا حرقة دم" قال ذلك ملوحًا بيديه ممسكًا بمطوته كعادته الاستعراضية في عرض هجميته بين الجميع.

وافقته أمي بالطبع، وبدأت تقنعني قائلة: يا بنتي الواحدة ملهاش إلا بيت جوزها، استحمليه، جايز طبعه ينعدل.

فعدت أجُر خيباتي، كان عليّ أن أنصت لقلبي حينها، ولكن تشوقي للوصول لبر الخروج أعماني، وما وصلت إلا لدوامة ابتلعني وابتلعت معها آمالي!

لم أكن لأسمح بمرور العمر هكذا! ما زلت أسبح في بركة من ندم وألم واعتراض وما زلت كل يوم أفكر في الخلاص

حتى جاء ذلك اليوم المشهود.

يوم عدت من عيادة الطبيبة، ذهبت إليها للاطمئنان بعد اجهاض إثر أخر ضربة لي تلقيتها من زوجي، كنت حانقة منه، كارهه النظر في وجهه الحيواني المليء بالفظاظة والقساوة المميتة.. أقنعته أخيرًا أن أجلس ليومين في بيت والدتي لأستريح، وافق على مضض، وافق على إراحتي دون رغبة منه!

كان زوج أمي عائدًا من سفر ذلك اليوم، أمست أمي تُحضر له العشاء.. بعد أن هاتفها وأخبرها بعودته في الطريق إليها،

حانت تلك اللحظة المخطط لها، جاء الوقت أخيرًا، كل شيء معد، كل الأشياء جاهزة، خبأتها واخترعت كذبة على أمي كي أخرج وأقنعتها بالعودة سريعًا، وافقت، ذهبت إليه حاملة له كل غضب السنين، لم أنسَ وجهه حين خر ساجدًا نادمًا أسفا، يترجاني بالعفو والسماح، لم أرحمه، لم أعفُ، كنت أتلذذ

بآلامه كما كان يفعل، طعنته بتلك المطواة، منقذتي ومفتاح حريتي، فعلتها أخيرا فعلتها بإحكام واتقان وهأنا عدت من جديد لن أحمل شيئًا معي سوى أحلام مستيقظة بعد ركود و"قفازات" شاهدتي الوحيدة على فعلتي ورفيقتي التي كتمت سر لا يعلمه أحد سواها حتى إني تخلصت منها؛ لأغدو نحو غد مشرق بلا أثر من ماضٍ أليم، الكل نال مايستحقه، مَن استحق الموت فدفن تحت الثرى ومن استحق العقاب فسجن خلف القضبان ومَن استحقت أن يطلق سراحها ففعلت! تعلمت أن أصغي جيدًا لقلبي وأن لا أهمل مشاعره حتى لو كانت انقباضة قلب.

****

قصةِ كتابة قصَة

****

جلستُ كي التقط أنفاسي بعد صراعات يوم طويل مع الأولاد، فضلًا عن أعبائي المنزلية المكتظة بالتنظيف والطبخ و....وإلى آخرِه مما يطول شرحه ليس موضوعنا الآن، لا لا إنه صميم الموضوع، فمُنذ زمن طويل لم أستطع أن أكتب، لم أُمارس هوايتي الوحيدة التي تنقذني من مضخات الحياة وطواحينها المميتة، لم أستطع أن أسرق بعض الوقت كي أختلي بروحي وأفلت بها إلي ما وراء الواقع، نحو الخيال أو إلى الواقع نفسه! هذا أمر يعود إلى قلمي وقتها، فيكتب كما يحلو له، أما خيال خالص أو واقع محض!

والآن أستعيد تلك الروح الآبية، صعبة المنال، العنيدة جدًا، ولكنها تفعل ذلك معي فقط، نعم أعترف بذلك، ولها العذر، فكم من أيام وليال بل وشهور أيضًا أتركها وحيدة في أروقة الفراغ تناجي الفكر والوجدان ولم أجب، كم من مرات ومرات دَغدغت مشاعري بعتابِ كي أعود ولم أهتم، فضّلت عليها كل

شيء: فضّلت عليها تلك الأطعمة المُعدة من أجل أولادي ليتغذوا ويتمتعوا بصحة جيدة، ومواعيد الأطباء حين يمرضون لإنهم لم يتغذوا جيدًا! ومذاكرة ما فاتهم من دروس وواجبات، ودقائق القلق التي تمر عليّ كدهورٍ، التي تتملكني حين يتأخر أحدهم في مدرسته، وصيحات الصغير المتكررة ليتمتع بأكبر قدر من حريتِه في التكسير والدمار الشامل في جميع الأشياء حوله، متعته الوحيدة في الحياة والتي لا يعرف غيرها حتى الآن؛ والذي أمنعه عنها في حرب دائرة بيننا والتي تنتهي عادة بإنهاك روحي وتقاطع أنفاسي وينتصر هو! فضّلت عليها غسل وكي ملابس زوجي كي يبدو متأنقًا دومًا أمام زملاء عمله، وتقديم الطعام في أبهى أشكاله المزينة وكأنني "الشيف" المسؤول عن قسم الديكورات الخاصة بالأطعمة؛ ولا أنسى بالطبع كوب القهوة سريعة التحضير بعد ذلك كله، فضّلت عليها كل شيء ونسيتها ونسيت معها نفسي!

وأخيرًا قررت ألا يطول الأمر طويلًا فلا بد من حل، ولا بد أن أُلبي نداء استغاثة طال انتظاره، معي قلمي، ومعي الأوراق، ولكن ليس لديّ فكرة، قد أستنفِذت جميع أفكاري، عمّ أكتب؟!

أحاول أن أجد فكرة ما لا بد أن أكتب شيئًا، أزوع ببصره في جميع أنحاء الغرفة أبحث عن فكرة ضالة لم تجد مأواها، فدومًا ما كنت أقول: الأفكار الإبداعية حولك في كل شيء وما عليك إلا أن تلتقطها، والآن ماذا؟ أين هي؟ لا أعرف، بدأت أحُك رأسي كي تجري الدماء بقوة لعلها ترتطم في فكرة ما، ازداد ضخْ الدم في شراييني، بدأت أتوتر؛ لم أجدها بعد.

حسنًا حسنًا فلتهدئي قليلًا_أُحدث نفسي لعلها تستجيب_ سأبدأ من أول الأمر، ماذا كنت أبدأ مطلع قصصي؟ تذكرت أو ربما ذلك، سأكتب الآن:

"هناك في إحدى ضواحي المدينة، كان يسكن رجلُ، تلك البناية شاهقة الارتفاع، كان منطويًا لا يُسمع له صوت، حتى ذلك اليوم الذي استيقظ فيه جميع أهل البلدة على تلك المفاجأة المروعة والتي حدثت داخل بيته....."

و حدث ما كنت أخشاه، دخلت ابنتي الكبرى قائلة:" أمي، أُريد منك أن تساعديننني في حل تلك المسألة"

كاد الغيظ أن يفتك بي، قلت لها: "أغربي عن وجهي الآن، انتظري حتى انتهي"

فردت بإصرار:"لا، إن لم أنهِ واجباتي سأُطرد خارج الحجرة المدرسية غدًا" فنظرت لي نظرة القاضي الذي لا يَرحم، المُطبِق للقوانين بصرامة وعليه أن يعطي الحقوق لأصحاها.

وبين عوامل جذب وشد بين نفسي المرهقة النائحة على أعتاب عالمي الخاص، وبين تلك النظرات التي ترميني بسهام التقصير، أخترت القاضي، أقصد ابنتي.

وبعد فترة من الوقت لا أعلم كيف مرت، لا يهم، فهأنا عدت الآن إلي أوراقي وقلمي مرة أخرى، بدأت أفكر فيما كنت أفكر!....اها تذكرت كنت أكتب قصة عن رجل في بناية في إحدى ضواحي المدينة، ولكن ما هذا؟ لم تكتمل الفكرة بعد، قد كانت في رأسي، لولا ذلك التدخل الغادر من قوات الاحتلال!

سأبدأ من جديد، سأكتب عن فتاة صغيرة من أطفال الشوارع، وسأُدون ملخص عن القصة قبل أن أشرع في كتابتها حتى لا أنسى:

"فتاة تدعى أمل، أخترت الاسم كتعبير ساخر عن وضعها الذي لا يُنبئ بأي أمل أطلاقًا، كانت تعيش في دار أيتام فهربت لقسوة المسؤولين، فلم تجد إلا الشارع مأوى لها، كان الحضن الذي احتواها ولكن كان حضن نحو الضياع حيث حدث ما لا يحمد عقباه....."

وحدث ما كنت أخشاه مرة أخرى، دخلت ابنتي الوسطى، تبكي بدموع مصطنعة، أعرف بكاء التماسيح هذا، رأيته مرارًا وتكرارًا من قبل، الأمر ليس بجديدٍ عليّ، كل ما جدّ إنني يبدو هكذا سأشاركها تلك الدموع ولكني سأساهم بالجزء الأكبر والصادق فيها.. كتمت غيظي مرة أخرى، فقلت لها بصوت يملؤه الأسى: "ماذا حدث؟ ما الأمر؟ ماذا تريدين؟"

فقالت وقد نالت المراد: أريد أن اشتري تلك اللعبة التي أخبرتك عنها من قبل، فقلت لها: "لقد تحدثنا في الأمر، وقلت لك في الإجازة الصيفية بعد انتهاء امتحاناتك فورًا، ساشتريها لكِ"

ردت: لا، أُريدها الآن.

فقلت في إصرار: لا، لا تعانديني، ستكون تلك اللعبة مكافأة لكِ على ما بذلتيه من جهد في دروسك واختباراتك والآن اذهبي وذاكري وكفى لعب واذهبي لمذاكرة دروسك.

خرجت متذمرة تستكمل باقي لهوها، و أكملت انا ما كنت ألهو فيه، بل ما كنت أصارع كي أنهيه...

تلك القصة، قصة الفتاة ولكن شعرت فجأة بالملل تجاه هذه الفكرة فهي قديمة مستهلكة تحدث عنها الجميع من قبل، حتى أنا تناولتها في إحدى كتاباتي القديمة.

تبا لذلك الخواء الفكري، لم أعد قادرة على الرجوع كما كنت، يبدو أنني سأبدأ كما لو لم أكتب من قبل.. أدركت الحقيقة الآن: إنني أُعاقَب.

وفي محاولة لكتابة قصة جديدة وفكرة جديدة، حدث ما كنت أخشاه مرة أخرى بعد أخرى ولا أدري أين نهاية تلك الأخريات!

دخل ابني الصغير_ لا بد أن يحدث ذلك فأين نصيبه هو من تلك المعركة_ دخل غاضبًا لا ينطق ببنت شفة كعادته، ما زال

صغيرًا متلعثم النطق، حاولت معه أن أفهم ما يريد، ففهمت أخيرًا أن أخته الأكبر منه استولت على ألعابه رغما عنه. وبعد محاولات من الصلح والمعاهدات عُدت إلي مطحنة الاوراق والقلم والأفكار التي لم تعد تزورني.

وقبل المحاولة الأخيرة لكتابة القصة التي لم تكتمل، سمعت صوت غلق باب المنزل وصوت مفاتيح أسمعها عادةً كل يوم في ذلك الوقت نعم كما فهتم، إنه زوجي العزيز، طبيعي جدًا أن تنتهي تلك الملحمة الكوميدية الساخرة فلم يتبق إلا هو.

قائلًا كالمعتاد: ماذا أعددتي لنا اليوم من طعام؟ هيا أحضريه حالًا أنا جوعان.

دون أن أنطق، وباستسلام تام مني ورضوخ لما أنا فيه، قمت وأعددت الطعام وبالتأكيد أحضرت القهوة سريعة التحضير ثم جريت نحو باب المطبخ حيث مملكتي الخاصة والتي لا يدخلها غيري وأغلقت الباب بقوة، فالتقطت القلم والورقة وسريعًا قبل أن تنساب مني بعض الكلمات من عقلي، أسرعت كي أنقذها من الضياع وأسقطها فوق أوراقي وها قد جائتني الفكرة

أخيرًا، قد كانت تلازمني طوال الوقت، ما كنت أحتاج إلا إلى لحظة تمعُن وإزالة لتلك الغشاوة من فوق عقلي وإلى ذلك الشعور الذي تركته في نفسي وتلك المعارك الدائرة منذ قليل، وكتبت: ها هي قصتي....

****

نبوءة رسلان

****

سرت وأشعة الشمس تحرق جبهتي المعتمة أثر الضيق والحنق على أوضاعي المزرية، جاءت أشعتها تشارك ذلك الاشتعال النابع من حلقي الغاضب لتركه دون اشتغال منذ يومين سوى من بعض الماء واللقيمات الجافة المتعفنة، أما عن ملابسي فلا يختلف اثنان على صمودها العجيب برغم توالي السنون عليها، ما زالت شامخة ثابتة لا تتغير إلا ذلك القطع الخلفي وبعض النتوءات في الأطراف فضلًا عن تغيير بسيط في ألوانها التي تحولت إلى لون هو أشبه بلون التراب، والفضل يعود في ذلك إلي قلة زيارة العزيزة علينا والتي أصبح من الصعب الحصول عليها، تلك التي تدعى "مياه".

في الحقيقة حالي لا يختلف عن حال أهل قريتنا، فجميعنا نحمل الأوصاف ذاتها، الشكل ذاته حتى الرائحة، إن جاز تعبير أكثر دقة، فلنقل: نسخة كربون.

إلا إنني اختلف عنهم في شيء مهم للغاية، ألا وهو العلم، تلك القيمة المفقودة، والسمة الموؤدة التى حل مكانها الجهل والخرافات والفوضى العارمة، حتى أصبحت حياتنا أقرب إلى الموت، كنت محظوظًا من بين هؤلاء حينما اختارني رئيس قريتنا مع مجموعة من الفتية اليافعين للسفر والترحال للقرى المجاورة لتلقي العلم على أيدي العلماء والمفكرين كمحاولة منه لإنقاذ البلدة من الجهل، ولكن لم يدم الأمر طويلًا، توفى الرئيس فعاد معظمنا بعد فترة لا بأس بها.

وهرب الباقون هناك طمعًا في العيش في رغد الحياة، نعم كانت ونعم الحياة، محظوظون هم أهل تلك البلدة المجاورة ينعمون في الترف والرفاهية كل شيء لديهم مجاب، كل شيء يمكن الحصول عليه بسهولة لا تعب لا كلل، تلك الحياة الحق قامت على العلم والفكر والبحوث حتى استقامت الحياة لديهم، عشنا هناك أجمل أيامنا، حقًا صدق هؤلاء حين رفضوا الرجوع مع باقيتنا وهربوا منا وفضّلوا العيش هناك.

عدت أنا وقلة منا رغمًا عنا، عدنا مكبلين مقيدين لئلا يهرب أحد منا كما فعل الباقون الناجون من الجحيم هنا، لا أعلم ما

هذه الطريقة الغير آدمية لعودتنا، وكأنهم أرادوا استكمال رحلة عذابنا ويتلذذون بذلك، عدت وليتني ما عدت.

الأمر بالنسبة للجميع هو أمر فطري طبيعي، منذ الولادة وتلك هي الحياة نفسها لا تتغير، أقصى أحلامهم وجبة وشربة ماء، لا تمرد، لا تذمر، لا حقوق، أما أنا فالوضع مختلف، هل من جرب الشبع يتعود الجوع؟! هل من استنشق عبير الحياة يستطيع التأقلم على روائح موت مؤقت، تلك كانت حياتي، لا أنا مثل هؤلاء الراضيين غير مُباليين ولا أنا ذلك الذي يحيا الحياة الأدمية الحقة، تبًا للوعي حين يخنق عليك عيشتك فالجهل أحيانًا مفيد.

ملعونة تلك الذكرى التي انتشلتني من هنا لهناك فجأة ثم أعادتني بنفس القوة وكعادتي أنفض غبار اليأس وأعود لحياتي، واستكمل مسيرتي غامض العينين لاهثًا وراء ملء البطون كباقي القطيع!

ولكن بدأت بشائر من أمل تهل علينا، الكل يتكلم، الكل يتهامس ويتنافس للوصول إليه.

"رسلان" ذلك الاسم الذي ظهر على الألسن وانتشر كانتشار النار في الهشيم، ذلك الشيخ الذي زار بلدتنا منذ وقت قريب، وبدأت على يده تظهر بعد الكرامات، كل من له حاجة يلجأ إليه، العليل يُشفى والغائب يرجع، وكل من ذهب عنه عقله يعود!

كل ما ينطقه هو حق، كل ما يقوله يحدث، الكل يسير خلفه لا ينطقون وراءه إلا "آمين".

أنا أشك إذًا أنا موجود كلمة الفيلسوف أفلاطون هكذا تعلمتها حين تعلمت، وحان وقت التطبيق، أنا أشك في ذلك الشيخ، في هذا "الرسلان" ..كيف لرجل يظهر فجأةً وكيف له القدرة على كل ذلك، يا لهذا القطيع الجاهل المظلوم، من السهل خداعه، ولكن من يستطع خداع هؤلاء هو شخص واعٍ وقاصد ما يفعل، هو ليس بشيخ البتة، لو كان كذلك لكان حدثهم عن أمور دينهم الذي لا يفقهون فيه شيء أو حدثهم عن تدبير شؤون حياتهم، فهو لا يفعل إلا بعض الكرامات والاستشفاءات كما يزعم البعض وكما سمعت، لا بد و أن يكون دجالًا ولكن ما

الذي يغتنمه من وراء ذلك؟ وماذا يجني من هؤلاء الخاليين من أي شيء سوى من بعض الغبار والوهن؟! لا بد وأن أراه.

بالفعل حجزت لي دورًا كباقِ العامة وكان ذلك منذ أيام حتى جاء دوري وهأنا ذاهب إليه، لا أدري ماذا أقول ولم أحُضر لذلك، كل ذلك كان بناءً على رغبة ذلك الكائن الواعي داخلي المتمرد في بعض الأحيان، لا بد أن استجيب حتى يهدأ قليلًا

أمام الدار وقفت انتظر، كان ذلك دار شيخ الغفر، أسكنه لديه كي يظفر ببعضٍ من بركاته.

الجميع ينتظر الدخول ناظرين إلى باب الأمل أمامهم، حالمين بيوم ينعمون بالحياة، فَرحين مهيئين لدخولهم الجنة!

أحدهم يصطحب ابنه المريض منذ سنين لا ينطق وأخرى تصطحب امرأة عجوز لا تبصروأخر ملثم لا يظهر من وجهه شيئا يختبئ وراء شال صوف يظهر منه عينان حائرتان.

كنت أحوم بنظري بين الجميع، أفكر، كيف لهذا البؤس أن يُنتشل من بين براثن الضياع؟ كيف لهؤلاء أن ينعموا بعد فقد ويأس؟!

فأُنتشلت من خيالاتي ومناوراتي على صوت المساعد لذلك الشيخ ينادي باسمي: صابر عبد الحي، جاء دورك.. أدخل

دخلت من باب جنتهم، دخلت كي أنعم بالخلاص، ليس الخلاص المرجو من هؤلاء بينما هو الخلاص من عبث الأفكار وظلمتها داخل عقلي المتعطش للحقيقة.

وجهت بصري إليه، لم أعط للغرفة أهتمامًا فهي بطبيعة الحال لا تختلف عن باقِ غرفنا في شيءٍ

وجدته جالسًا جلسة المتزعم واثق الخطى، يرتدي جلباب أخضر فضفاض حريري ناعم الملمس، يمسك سبحة تحمل اللون ذاته، يتمتم ببعض الكلمات لم تسعفني أذناي لالتقاطها، تجاوره بعض القارورات الزجاجية وحقن، ولا أدري فائدتها ولماذا! أمامه صندوق مغلق تشوقت لمعرفه ما بداخله، وهو منشغل بترتيب بعضًا من هذه الأشياء فلم يلتفت لي في أول الأمر.

ذو لحية كثيفة، مزيج بين السواد والبياض، في نفس عمري تقريبًا، يبدو على هيئته الهيبة والوقار والثراء، نعم يحق للجميع الانبهار به و اللجوء إليه.

بدأت بإلقاء التحية عليه، تحشرج صوته قليلًا ثم رد التحية، نظر في وجهي فنظرت إليه، بدت علي ملامحه علامات شك وريبة في نظرته الأولى لكنه سرعان ما التفت يعاود عمله، شعرت خلالها بالألفة تجاهه وكأني أعرفه، لم أشعر بالغربة حين رأيته!

قال: ما مشكلتك.

قلت: ألا يفترض بك أن تعرف؟!

قال: ولماذا؟ أتراني دجالًا أزعم معرفة الغيب؟!

قلت: وماذا تكون إذًا؟!

لمعت عيناه فجأةً والتفت يمينًا ويسارًا ورد بحدة قائلًا: أجئت لمشكلة تريديني أن أخلصك منها أم جئت لاستجوابي والتشكيك في؟!

قلت: حاشا لله، أنا فقط أريد أن أفهم.

قال: تفهم! تفهم ماذا؟! منذ أن رأيتك وعرفت أنك مختلف عن الباقيين.

قلت: أريد معرفة الحقيقة، من أنت وماذا تريد من أهل البلدة؟ كيف استطعت بهذه السهولة الاستحواذ على عقولهم؟

قال مبتسما ساخرًا: وتريديني أن أجيب عن كل أسئلتك دفعة واحدة؟! أراك متحمسًا ذكيًا وجريئًا أيضًا ولكن خانك ذكاؤك في سؤالك الأخير، ألا تعرف إجابته!

قلت: بالفعل أعرف ولكن أردت سماعك، أعرف أنك متفهمًا لطبيعة أهل البلدة وكيف هم منغمسين في الفقر والجهل فانتهزت ذلك كله ولكن لماذا ولصالح من؟ ذلك ما أريد معرفته اليوم منك، لا يعرف طبيعتنا إلا فرد مننا عاش معنا ليالي الظلم والبرد والجوع ولكن أنت جئت من عالم أخر، عالم الحياة الأدمية، من أنت؟ وماذا تريد؟

قال: جئت لأخلصكم من هذا كله، جئت لأريكم كيف هي الحياة، لأخذ أيديكم إلى هناك، حيث الحياة الحقيقة التي تتمنوها.

قلت: تبًا لك، لقد عاودتني نفس الذكريات ثانية،ذكريات سعيدة تذكرتها لطالما أردت نسيانها وكأن مفتاحها تلك الكلمة (الحياة الحقيقية).وكأنك تملك مفتاح لكل منا، تستطيع به دخول كل عقولنا وأرواحنا حقًا صدق الجميع في تصديقك، يحق لهم إتباعك مغمضين أعينهم.

قال: لكنك مختلف عنهم، أنت صعب المنال، أنت تفهم.

قلت: وكيف عرفت، أغرتك تساؤلاتي؟

قال:لا، لم أجيبك، سأترك لذكائك فرصته لمعرفة كيف عرفت، علينا الآن تبديل الأدوار

قلت: كيف؟

قال: سأطرح أنا الأسئلة وأنت تجيب، كي تهدأ ثورتك لأنني أعرفك وأعرف تعطشك الدائم للمعرفة!

قلت بنبرة أكثر حدة: لا تثير غضبي ولا داعي لألاعيبك معي كن صريحًا من أنت وماذا تريد ؟!

قال معاودًا لنفس ابتسامته وسخريته: مهلًا مهلًا، أُريد فقط منك أن تتحلى بهدوئك وشجاعتك كسابق عهدك وكحالتك حين

دخلت عليّ الآن، سأختصر عليك الأمر وسأطرح سؤالًا واحدًا، كيف هو حالك الآن بعد مجيئك من هناك؟ ألم ترد الذهاب هناك مرة أخري، ألا تريد فرصة أخرى للهرب؟!

قلت هامسًا: هناك... فاستنار عقلي فجأةً ورددت بحماس: حاولت ولكن لا مفر من هذا الجحيم، كثيرًا ما كنت أتمنى لو استطعت الهرب مثلك!

قال يبادلني الحماس والتأثر: فهمت الآن من أكون؟

قلت: ولكن يبقى أن أعرف ماذا تريد يا رسلان، جئت متخفيًا، غيرت اسمك وهيئتك حتى لا يستطيع أحد أن يعرفك؟ لا تقلق كل من يعرفك ماتوا والباقون لا يستطيعون تذكرك حتى هم بالكاد يتذكرون أسماءهم.

قال : لا أقلق، قمت بدراستي لأهل البلدة قبل مجيئي هنا، كل شيء مدروس، كل شيء مخطط له ولكن دعك من هذا كله، ما رأيك في أن أحقق لك حلمك القديم، انضم معنا، فرضتك قد أتتك الآن، لا تفكر كثيرًا، غيرك يتمنى هذه الفرصة.

قلت: إهدأ قليلًا، من أنتم؟

قال: نحن هناك في المدن المجاورة أهل العلم، مجموعة من العلماء والأطباء مهمتنا هي توفير كل سبل الراحة والنعيم لأهل مدينتنا ولكن أصابتهم الأمراض رغم تلك الراحة والرفاهية يبدو أن أجهزتهم الجسدية لم تعد تقوى على الاشتغال لقلة الحركة هناك، ففكرنا نحن العلماء والأطباء في الحل فكان الحل هنا عندكم، أنتم الفقراء تنعمون بصحة جسدية رغم الفقر، ما زال لديكم أعمال تقومون بها، ما زالت الطبيعة تنعم عليكم بقوتها فألقتها في أجسادكم، فجئنا نستعير بعض منها.

قلت مذهولًا: أمجنون أنت؟ هل العيش هناك جعلك عديم الرحمة والإنسانية، ألا يكفيكم كل ما تظفرون به، فجئتم لأخذ الباقي منا.

قال: بالعكس يا صديقي، هي عملية تجارية إن فكرت بها، نأخذ أعضائكم السليمة وتأخذون بعض من فائض أموالنا، أنتم تحتاجون المال ونحن نحتاج الصحة.

قلت مبصرًا نحو الحقن: والجميع هنا يعرف ذلك؟

قال: في أول الأمر أوهمهم بأنني قادر على شفائهم.. اصطحبت معي بعض من العقاقير الدوائية والمسكنات.. أخذت بعض من دمائهم هناك (وأشار داخل الصندوق)لأعرف من يصلح ومن لا يصلح.. وأعطيتهم دواء أو مسكن يفرحون فيجيئون مرة أخرى.. أعرض عليهم الأمر فيلبون بمنتهى السهولة، الجميع هنا لا يهمه فقد إحدى كليتيه أو عينيه أو حتى شعره، الكل يريد الطعام والشراب والملبس لذلك يريدون المال فقط لا غير.

قلت بنبرة هادئة مستسلمًا للأمر: صدقت، الجميع هنا موتى من قبل، لا ضير لهم في أخذ شيء من أجسادهم، فهم غير مبالين به صدقت حين اخترت هؤلاء الجهلى الحمقى الضحايا، صدقت في أول الأمر حين رفضت الرجوع ومكثت هناك، وصدقت الآن أيضًا حين عرضت علي الأمر

والآن كيف تريدني معكم أيها المخلص؟

****

كلب على الرصيف

****

أقف هناك فوق الرصيف، متجمدة الأطراف زائغة العينين، تتصبب وجنتاي عرقًا وخوفًا، أشعر بالثقل في جسمي كله حيث أصابه الجمود، إلا ذلك الجزء القابع خلف القفص الصدري الذي ينبض بل يستغيث بأعلى دقاته.

فمنذ أن رأيته ماكث في ذلك المكان احتلني الرعب كالعادة

حيث موطنه الأصلي خلف صناديق القمامة، ذلك المكان الذي يخافونه المارة، لا يجرؤ أحد على السير فيه بل في الشارع كله ولسوء حظي لا خيار أمامي سوى أن أتحلى بالشجاعة أو استعوض الله فيما يتبقى مني بعد المرور!

فمنزلي هناك أخر الشارع، أخر أطراف موطنه، ذلك المحتل.. كل يوم أمر بتلك التجربة، كل يوم عليّ أن أفكر ألف مرة قبل المرور، لمَ عليّ أن أسير أمامه؟ لمَ عليّ الخروج من بيتنا من الأساس؟! تبًا لذلك الاحتياج الذي يدفعني دفعًا للعمل في ذلك

المشفى، المشكلة ليست في الخروج نهارًا، بل في رجوعي ليلًا حيث يقف في هذا الوقت.

هو يتربص ليّ دونًا عن الباقيين، منذ أن يراني يزداد سوءًا فيما هو فاعله، ذلك الكلب وصاحبه، لا أدرى من يستقوى بالآخر، كلاهما يحملان الصفات نفسها والنباح ذاته، ولون البشرة حيث السواد الداكن، وسواد آخر يخرج من فاهه بأشكال مختلفة من الألفاظ والمعاكسات التي تتحرش بجسمي كله وتصيبه بالغثيان والاشمئزاز.

لم يجرؤ أحد على ايقافه يوما ما، الكل يقف مستكينًا، فهو بلطجي الحي معروف عنه ذلك، يصطحب كلبه الذي ينهش لحم وعظام أي من يحاول أن يعبث معه أو يتفوه بكلمة، فما بيديّ إلا أن أسد أذنيّ حتى أحافظ على بقايا مشاعري وآدميتي بعد أن يستفرغ كل ما بداخله من وقاحات.

لم أصدق أن ذلك المعتوه طلبني يومًا للزواج، أيعقل هذا؟ لا أريد أن أتذكر هذا أبدًا، أه لو أستطيع أن أمحي من ذاكرتي كل ما يؤرقني، فعلى الإنسان أن يعيش سعيدًا لو استطاع

الاحتفاظ بذكرياته السعيدة ومحو كل ما يؤلمه، فماذا لو هناك ركن خلفي وراء الذاكرة يلقي فيه الإنسان تجاربه السيئة بلا رجعة، كهؤلاء المنبوذين المنفيون هناك في بقعة ما على الأرض لا يسمع عنها أحد من قبل ولم يراها، ليتنا نستطيع ذلك.

أخشى منهما، ذلك الكلب وصاحبه، لا أدرى متى تتحول آذيته من قول لفعل ويطلق عليّ كلبه.

فهممت بالسير أمامه متظاهرة بالقوة، فبدأ هو فيما اعتاد قوله، ولكن هذه المرة حدث شيء مختلف، نطق أحد المارة ودافع عني بل توجه اليه كي يعنفه، أخيرًا رأيت رجلًا في شارعنا!

يبدو أنه غريب هنا، لم يسمع قط عن "جعران" وكلبه الشرس الفتاك وإلا سيصيبه ما أصاب أهل حيِنا من الاستسلام المميت.

زمجر جعران وسحب كلبه كي يطلقه على ذلك الغريب ولكن ماهذا؟! رفض الكلب أن يفعل شيئًا. لم يخضغ لأوامر صاحبه، لن ينهش لحمًا وعظامًا، أين الشراسة التي سمعنا عنها طوال

العمر؟ أين المجازر والدماء والأشلاء المتناثرة إثر معارك وحروب؟!

لا شيء، فقط لا شيء سوى الصمت والسكون، مما دفع الغريب لضرب جعران ضربًا مبرحًا والأخير لم يقاوم،كيف وكلبه رفض المساعدة فهو بدونه لاشيء.

يا إلهي لم اصدق عينيّ، أقف مشدوهه من المفأجاة والصدمة، هذا الغريب أخذ بحقي وحق كل من آذاه ذلك المعتوه وموقف الكلب الذي ظهرت عليه بعض من بوادر الإنسانية وصمت جعران الدال على ضعفه وهشاشته!

فاليوم واليوم فقط، مررت بسلام دون خوف أو حروب دائرة بين عقلي وقلبي، عقلي الذي يقنعني بالقوة وقلبي الخائف،

اليوم فقط استطعت أن اسير مطمئنة، طمأنتني تلك العيون ولسان حالها لا داعي للخوف، أنا هنا لأحميك أنا أمنعه عنك دائمًا، حاول مرارًا من قبل آذيتك من خلالي ورفضت.

ليست عيون الغريب الذي أدى دوره البطولي ورحل تاركًا وراءه بقايا من ذلك الذي أعدمه ضربًا، ولكن عيون ذلك الكلب

الذي عشت أخاف منه! وذهبت وأنا لا أدري أيهما الكلب أهو المربوط بسلسلة وطوق حول رقبته أم القابع خلف صناديق القمامة يتألم إثر ضرب مبرح؟!

****

الرسالة الأخيرة

****

هاهي السحب تهطل أمطارها داخل قلبي لتهدئ من روعه واشتياقه، علّها تخمد تلك النيران المشتعلة فيه منذ دهور، أحتسي كوب من الكاكاو الساخن كما كنا نفعل سويًا، حتى أدفئ برودة عقلي الذي أصابه الجمود منذ أن تفرقنا.

أسبح داخل البرد القارس ويسبح في، فنصبح كتلة واحدة من الوحدة والألم، أناشد السحب أن تحملك إلي وتمطرك على طرقات دعائي لك، ولكنها انهالت بالبرق والصقيع!

كنت أحب الشتاء لإنه دائمًا كان يجمعنا معًا أمام المدفأة واحتساء مشروبنا المفضل، والآن بت أكرهه لإنه يذكرني بفراقك.

عزيزي وزوجي هذا هو الخطاب رقم خمسة وعشرين بعد المائة، أرسل إليك معلنة غضبي وأسفي، ألم تأتِ بعد؟! قد طال سفرك، يا لتلك الظروف التي رمت بك إلى تلك البلاد، وتبًا لتلك الحروب التي تفرق بين الأحبة! قامت الحرب و

انتهت، ولم تنتهِ الحرب داخلي، ما زلت عالقًا هناك أسير حرب لا دخل لك فيها ولا شأن، ما ذنبي أنا وذنب تلك الأحلام التي بنيناها معًا على جسور من حب وأمل، فتهدمت، كتلك الأبنية والجسمان المُدمرة إثر حرب واغدة متوعدة للعدو بالشتات والضياع، هكذا صارت الأحلام؛ و ما زلت في انتظارك لنُشيدها من جديد، لنكيد للحروب كيدًا .. ونبني أمامها سدًا منيعًا، سدًا واقيًا قادرًا على تشييد الشعوب والجسمان والأحلام سويًا.

لا آمِلُ ولا أيأس من عودتك مرة أخرى، فكرت كثيرًا في المجئ إليك ولكني لم استطع، لم أجرؤ يومًا على ذلك، برغم استحواذ الفكرة على عقلي وسيطرتها عليّ حتى باتت تزورني في المنام، تأمرني هيا انهضي، لمَ المكوث هنا وروحك هناك معلقة بين اليأس والآمل؟ تناشدك أن تاتيها حاملة لها الخلاص!

وأخيرًا ما زلت في انتظارك وفي انتظار وقت اللقاء.

زوجتك العزيزة.

طوت الرسالة وأدخلتها داخل المظروف وأغلقته، اتجهت نحو النافذة، لترى الأمطار التي ما زالت تواصل هطولها، والسماء الملبدة بالغيوم والعواصف التي تقتلع أوراق الشجر الذابلة، وتمايل النخيل من قوتها حتى كاد يسقط ويسقط معها قلبها! فاحتضنت نفسها بقوة وظلت واقفة كتلك الشجيرات اليابسة هناك.

ومن خلف ذلك كله في الغرفة المجاورة والتي يفصلهما فقط لوحًا زجاجي، يسمح للرائي مشاهدة من بداخل الغرفة، يقفان من يشهدون انهيار تلك الروح الهالكة، دومًا ما أرادتا تقديم يد العون والمساعدة ولم يستطيعا فكيف لأحد أن يعيد روح مفقودة، كانا الأم والأخت، يدعوان لها بدموع حارة وقلوب متهتكة حزينة.

قالت الأم والألم يفتك بها: إلى متى ينتهي هذا العذاب؟ إني أُذبح كل ليلة حينما أراها هكذا، لا تأكل ولا تشرب حتى تحولت لهيكل عظمي ولا حياة فيها، فأكملت باقي حديثها بكاء.

فردت الأخت: حاولوا الأطباء معها كثيرًا ولكن دون جدوى حالتها مستعصية، هي ترفض كافة أنواع العلاج، عقلها رافض تمامًا أن زوجها قد توفى! منذ أن وصلت تلك الرسالة التي تخبرنا بوفاته في الحرب وهي على تلك الحالة وكأن عقلها توقف عند تلك النقطة من الزمان.

قالت الأم: أتذكر ذلك اليوم جيدًا، وتلك اللحظات وكأنها كانت البارحة، كانت تتجهز له وتجهز بيتها وتزينه حتى أصبح قطعة من جنة، كانت فَرِحة سعيدة وكأنها حور من الجنة تنتظر ملاكها، ولكن ما لبث أن تحولت تلك الجنة إلى الجحيم! أصيبت بانهيار عصبي ونوبات صرع وهيستريا من صراخ متواصل انتهى بها الحال إلى ما هي عليه الآن، هنا في هذا المشفى.

قطع حديثهما عدة طرقات على باب الغرفة تستأذن الدخول، كانت الطبيبة، جاءت تمر نحو الغرفة المجاورة خلف اللوح الزجاجي كي تأخذ مريضتها لتواصل باقي جلسات العلاج والتي بدأت فيها منذ شهور، وكالعادة ساروا سويًا دون أي كلام وباستسلام تام كما تعودت الطبيبة منها ذلك، ساروا أمام

أعين الأم والأخت كالجنازة المشيعة لجسد فارقته روحه، وبعد الانتهاء عادت لغرفتها مرهقة يصرح جسدها كله، تسمعها قلوب الحيارى والمعذبين، فارتمت بجسدها كله فوق الفراش، سقطت بعض الدمعات من عينيها وفجأة تجمدت فوق الوجنتين واستقرت، فنهضت والتقطت الورقة والقلم وكتبت:

زوجي العزيز هذه رسالتي لك السادسة والعشرين بعد المائة، أعاتبك، لمّ تصر على تركهم لي يتهمونني بالجنون والمرض؟! يصرون على ذلك وأصرأنا على صدق كلامي وإحساسي بأنك حي، أصدق ذلك بكل ذرة فيّ، وأؤمن بأنك ما زلت على عهدك بأنك لم ولن تتركني أبدًا، لم يفرقنا شيء، أي شيء على الإطلاق، وحان وقت اللقاء.

زوجتك العزيزة.

طوت الورقة ووضعتها داخل المظروف واغلقته.. وضعت رأسها فوق الوسادة لتنعم بما تبقى لها من أمل، تسللت خلسة أشعة نور في عينيها، ها قد انتهت الأمطار وبرزت الشمس من بين السحب تعلن الانتصار والدفء والنعيم، ظهر طيفه

فجأة مادًا يديه ليصافحها، قد وعد وأوفى وهي صدقت وآمنت، والآن جاء الوقت ليصدق الجميع إنهم دائمًا لا يفترقان! ولا يفرق بينهما موت! ابتسمت حتى وجدت راحة لم تشهدها من قبل، فتسارعت أنفاسها بين شهيق وزفير، اضطربت عيناها ذهابًا وإيابًا حتى استقرت واغلقتهما بلطف قائلة: حان وقت اللقاء.

****

الوحش الأسود

****

يتقدم نحوى بإصرار يريد الانقضاض عليّ أرى ذلك الإصرار فى عينه، ذلك الوحش الأسود الذي طالما أراد النيل مني، سواد لونه يعكس سواد قلبه القاتم، أكتم أنفاسي أحاول الفرار ولكن دون جدوى، لم أعد أشعر بقدماي يبدو أن ذلك الجزء من جسدي فقد الوعي، تنساب قطرات العرق من فوق وجنتي وضربات قلبي بدأت تعلو وأصبحت أكثر رعبًا منى، كل ضربة هى أشبه بقرع طبول الحرب في ساحة المعركة، لم أعد أقوى على الاحتمال أكثر من ذلك، لمّ أنفذ عقوبة لتهمة لم أرتكبها؟! تبًا للجميع سأصرخ طلبًا للاستغاثة، مهما كلفني الأمر، لا يهم، لا وقت لديّ إنه يقترب ويقترب نحوى قد أبدو له قطعة من الطعام الشهية التي لا حول لها ولا قوة، وأنا بضألة حجمي لا أقوى على شيء، فقط الاستسلام ولكن لا سأحاول الهرب والاستغاثة.

تنطلق عنوة أصوات صراخ يصحو على هولها الموتى، صراخ لا يتوقف، قلب كاد أن يتوقف، وعقل مشتت لا يعمل.

فاجتمع الجميع حولى داخل غرفتي في الملجأ الذي تربيت فيه، أتين رفيقاتي فى الدار مسرعين نحوي متسألين ماذا بكِ يا إيمان؟!

لم أرد عليهن فأكتفيت بوضع أيدى على فمي وباليد الأخرى أشرت نحوه، فاقتربن جميعًا ليروه ففر هاربا، قالت إحدهن:" كل هذه الضجة من أجل صرصور؟! ألم تكبرى بعد وتتوقفي عن إفزاعنا المتلاحق " فامتنعت عن الرد، فقد سمعت مثل هذه الأقاويل كثيرًا ولم أعد احتمل موجات السخرية أكثر من ذلك، فظللت حبيسة سؤالي الدائم: لمّ أعاقب على ذنب لم أفعله؟!

وعلى رؤوس الحاضرين إندس وحش من نوع آخر، ذلك الوحش الذي أخافني كثيرًا على مرار سنين مضت، إنها المشرفة "عنايات" جاءت وشرر يتطاير من عينيها

الحمراويتين قائلة: ما بكِ؟ ما الأمر يا لعينة؟ لقد أفزعتيني من نومي، قد سئمت منك كثيرًا.

فردت إحداهن باستنكار وقالت: صرصور كالعادة.

_صرصور! سرقتيني من نومٍ هنيئٍ من أجل أمر تافه مثلك؟! كم مرة حذرتك ألا تصرخين وتثيرين المتاعب.. يبدو أنكِ لم تكبري بعد، لذلك سأعاقبك كطفلة، فأمسكت بيدي عنوة وسحبتني خلفها، فانطلقت شهقات من أفواه الحاضرات واتبعوني.

قاومتها ولم أقوَ، ما زال جسدي متعب أثر الفزعة وما زالت تحتفظ هي بجسد ضخم لم تغيره السنون.

فرآيتها توقفت أمام تلك الغرفة اللعينة والتي يكرهها الجميع ويفروا من أمامها هاربين، فهى تترك داخلنا ذكريات طفولة أليمة، الحجرة المظلمة.. المكان الذي كنا نعاقب فيه كجرذان منبوذة، كنا نوضع بداخلها حين تخطئ إحدانا أو تنطق ببنت شفة على نحو لا يرضي ال (عنايات) تلك، فكانت تعاقبنا

بحبسنا في تلك المقبرة الموحشة ليوم كامل، لم أنسَ كم الصراصير التى انهالت عليّ يومها وفى أيام آخر.

_هيا هيا أدخلي.. سألقنك درسًا من دروسي القديمة، كي لا تجرؤين على فعلتلك تلك ثانيًا؟

فتملصت من بين أيديها والدماء تفور فى وريدى وغضب السنين يحتل وجهي وامتد نحو قبضة يدي فاشتدت، فابتعدتُ عنها وسط ذهول ودهشة منها ومن رفيقاتي خلفي فقلت: لم أعد طفلة لتعاقبينني! اتركيني وشأني قد سئمت أفعالك وقساوتك لقد سئمنا جميعًا منك، فنحن لسنا بدُمى بين أيديكِ تلعبي بنا كما تشائين.

_فزمجرت كثور هائج قائلة: أتجروئين عليّ وتقولى لى أنا ذلك الكلام، يبدو أنني لم أحسن تأديبك فى الصغر وسأفعل الآن، فشدتني بقوة أكثر للدخول فى الغرفة، فشدتها أنا بقوة أكثر صاحبها غضب السنين وألقيتُ بها داخل الغرفة وأغلقت الباب بإحكامٍ، أصبحت شهقات الرفيقات أعلى، فَرحين شامتين فيها، تعالى أصوات صراخها حين هجم عليها الصراصير

وكادت تلتهم لحمها وتتعذى، جاءت جائعة فلم تتذوق الطعام منذ سنين، نظرت إليها بعينين شامتتين يملؤوها لذة الانتصار وانتقام ظل سجينًا منذ الطفولة وقد حان وقت صراحه.

****

كذَبَت عليّ أمي

****

كنت بين أحضان أمي وحنانها، والأمان في حضرة أبي.. والطفولة في أوج صورها بين أخوتي.. ألعب كما لم يلعب طفل من قبل، تتأرجح داخلي نسمات من الفرح والنشوة والاحتواء، لم القِ بالا لما كان وما سيكون طالما أنا هنا وسأكون!

وذات يوم اصطحبتني أمي لخارج المنزل، اشتريت لي البسكوت والشوكولاته، قالت لي سنذهب لنزهة ستحبها كثيرًا، ساحة مليئة بالألعاب والأراجيح يمرحون فيها الأطفال ويلعبون طوال اليوم، سنمرح ونفرح سويًا، كنت سعيد للغاية فور سماعي هذه المفاجآة منها فقلما تفعل أمي معي ذلك!

وصلنا للمكان المنشود، رأيت ضجيج الأطفال وشقاوتهم، في شتى الأشكال والألوان، لكنهم يتفقون في زي واحد.. الألعاب والأراجيح كما وصفتها أمي، فانطلقت متعطش لها ألعب وألهو ولكني لم أرَ أمي، التفتُ يمينًا ويسارًا ولم آراها، اختفت فجأة،

كذبت عليّ أمي حين قالت سنكون سويًا، لم يعد بوسعي الآن سوى البكاء علّها تسمعني وتأتي، بكيت وبكيت حتى جاءت إحدى النساء وأمسكت بي وقالت: "يا ميس الطفل الجديد بيعيط من بدري ومش عايز يسكت"

ردت "الميس": "دخليه فصله وسكتيه".

****

أحلام مبعثرة

****

تجلس بين رفيقتيها فى الحديقة، ترتشف من الشمس أشعتها وتداعبها الرياح بلطف، ترتدي أبهى فساتينها التي أعتادت ارتدائها فى فصل الربيع. تتباهى بجمالها وعبيرها الفتان، تنظر إلى الأخريات بعين تكبر واستعلاء وترى فى نفسها شيء مختلف يميزها عنهن بالرغم من تشابههن الشديد وارتدائهن نفس الفستان الزاهي الألوان.

يفتح باب الحديقة ويتوافد الزائرون فيتهامسون فيما بينهم عن جمالهن وروعتهن التي لا مثيل لها. يقترب بعضهم ويكتفي بإلقاء بعض نظرات الإعجاب، والبعض الآخر يختار إحداهن لترافقه. تظل هي برغم جمالها لا يقترب منها أحد فيزداد غضبها. لا يعيرها اهتمام سوى ذلك النحل اللعين الذي يعتلي رأسها ويتراقص بين وجنتيها ودائمًا ما تفشل في إبعاده. غارت منهن كثيرًا ومن مصيرهن مع هؤلاء، بالتأكيد سوف

يحافظون عليهن تقديرًا لجمالهن، فلابد وأنهن سيحيين حياة سعيدة حقًا.

تمايلت حتى تلفت الأنظار إليها، فنظرت إلى الشمس لكي يتلألأ نورها على وجهها فتبدو أكثر جمالًا، وإذ بغلام يأتيها من بعيد يفترسها بعينيه يتقدم نحوها بتحدٍ وإصرار لينالها. يقتطفها من بين الزهور ويشم رحيقها ويتلاعب بها حتى ملّ، فألقاها على الطريق أوراقا مبعثرة.

****

غربـاء

****

هناك في إحدى أطراف المدينة، شارع من أجمل شوارعها، حيث تزينه الطبيعة بروعة مافيها؛ فتجد الأشجار بلونها الأخضر البهي، وبحيرة تحمل أروع الأعشاب المرجانية الملونة تتبختر بينها الأسماك كعروس مزينة لا تقل عنها جمالًا؛ والشمس الذهبية تلمع، أشعتها نورًا براقًا ينعكس على منازل تلك المنطقة بألوان طيف خلابة ساطعة.

وسكان ذلك الشارع ينعمون بهدوء وسكينة ورضا وجمالًا لا يقل وصفًا عن المكان الذي سكنوا فيه فأصبحوا معًا جزءًا لا يتجزأ من بعضهما البعض، جميعم كذلك وخاصة تلك البناية الوردية القاطنة أمام البحيرة مباشرة التي تحوطها الشجيرات والزهور فتجعل منها لوحة فنية تلخص جمال الكون كله!

أما عن سكان تلك البناية، بالطبع هم أكثر سكان الشارع هدوءًا ، لدرجة أن لا يُسمع لهم صوتًا، فلا يشعر أحد بوجودهم على الإطلاق.

ولكن كطبيعة الحال" الحلو لا يكتمل" عانوا سكان تلك البناية الوردية من ذلك المتطفل الدائم، الذي يؤرقهم دومًا بمحاولاته في جلب السكان للعيش معهم! وبرغم محاولاتهم في إفشال مهمته اللعينة كل مرة؛ ألا إنه ما زال يجلب المزيد والمزيد من المتفرجين وغالبًا ما يكونوا غرباء عن المنطقة، فتغريهم جمالها وهدوءها؛ فيقنعهم بمدى حسن حظهم لو اقتنوه وعاشوا فيه!

يومًا ما اجتمع أهل تلك البناية، يتشاورون ويتحدثون حول كيفية التخلص من ذلك السمسار المتطفل، وكيف يخرجونه بلا رجعة.

حول المائدة المستديرة وفي ضوء خافت تضيئه الشموع يجلس الأب والأم وابنهم، تملأهم الحيرة والغضب، يبدأ الأب قائلًا: لا بد من وضع حدًا لهذا الوضع، نحن نسكن هنا منذ زمن طويل، لا نختلق المشاكل، ابتعدنا عن البشر وآذاهم، عن الضجيج والفساد، اختارنا الصمت والابتعاد عن المشاكل، تركنا لهم العالم كله، وسكنا بعيدًا حتى لا تصيبنا لعناتهم ومع ذلك يصرون على بث شرورهم!

تكمل الأم قائلة: قلت لك من قبل هم أكثر شرًا منا لا يتركوننا وحالنا، يعيثون في الأرض فسادًا ويسفكون الدماء، لا مفر طالما قُدر لنا المكوث معهم لا بد وأن تصيبنا شرورهم وآذيتهم.

يرد الأب: ولكن ماذا نحن فاعلون؟ أفكر مرارًا وتكرارًا في فعل ما أخبرتك به، هم من أرغمونا على ذلك، ماذا جنينا من ردود أفعالنا الضعيفة الواهنة والتي تُشعر السمسار بضعفنا فيصر على جلب المزيد.. لا بد من فعل قوي كما كنا قديمًا، حيث يهابوننا ويخافونا كسابق عهدنا.

ترفض الأم قائلة: ولكننا أقسمنا على ألا نعود لذلك ابدًا، وقررنا ألا نتشبه بهؤلاء البشر مهما يحدث، فلماذا جيئنا هنا؟!

يشاركهم الابن بعد أن سمع الحوار كله قائلًا: نعم يا أمي أوافق أبي وبشدة، نحن لا نخطئ إذ فعلنا ذلك؛ فهو حق لنا و يجب الاستماتة من أجل الحفاظ عليه، ابتسم الأب وأومئت الأم بالموافقة راضخةً.

وبعد ذلك الحوار قد وضعوا خطة، وتحمسوا كثيرًا لتنفيذها بل تعطشوا إلى فعل ذلك أيضًا، أرادوا أن يستعيدوا جزء من كينونتهم والتي تركوها عمدًا وألمًا كي ينعمون بالخلاص والسلام، اشتاقوا نعم اشتاقوا ولكن كما هو الواقع؛ لا بد للبشر أن يلوثوا كل شيء و يتركون آثارهم السيئة، واستجاب سكان المنزل بلا رحمة ولا شفقة!

سمعوا صوت محرك السيارة، هو عينه ذلك الصوت، صوت سيارة السمسار، جاء لقدره الذي خطه بيده، واستعدوا لتنفيذ الخطة.

دخل السمسار ومعه زبائنه، يغدق عليهم بكلماته المعتادة في مدح أوصاف المنزل والشارع قائلًا: هيا متعوا أنظاركم بكل ذلك الجمال، قصر ولا قصر شهريار، ستنعمون فيه كالملوك والأمراء، قصر زوقه مختلف، فضلًا عن حديقته الواسعة وغرفه الكثيرة، وأثاثه الأنيق المتسم بالفخامة، كان يسكن قبلكم فيه الوزراء والأمراء.

ترد الزبائن المكونان من زوج وزوجة: ولكن سمعنا بعض الأحاديث تدور حول ذلك القصر، حيث لا يبيت فيه سكانه إلا بضعة أيام و يغادرونه، تُرى ما السبب؟!

أحمرّ وجه السمسار خوفًا من أن يعرفون سره، دومًا ما كان يأتي بزبائن غرباء من خارج البلدة عامدًا ذلك، جاهلين ما يخبئه من أسرار، فينصب فخاخه بكلاماته المعسولة ليسكنوه؛ ويكتظ كيس نقوده على آخره، لأول مرة يصادفه هذه النوعية من الأذكياء.. تلعثم قليلًا قائلًا: تلك أشاعات مغرضة، يبثها منافسيني، لا شيء يحدث من هذا، فقط اسكنوه وستأتون تشكرونني لاحقًا.

ابتسم الزبائن مقتنعين، وتابعوا مشاهدة باقي المنزل، وخلف ذلك كله كانوا سكانوه الأصليين يشاهدون تلك الأكاذيب والتي حمستهم كثيرًا نحو خوض المعركة_ تلك الخطة التي أعدوها من قبل.

بينما السمسار و الزوجان يصعدان الدرج للانتقال للطابق العلوي شموا روائحًا وكأن شيء ما يحترق، و تأكد شعورهم

ذلك بعد الصعود ورؤية دخان ينبعث من إحدي الغرف، تحديدًا من المطبخ، اندهشوا قائلين بذعر: ماهذا؟! أيوجد أحد هنا وما هذا الدخان.. شيء ما يحترق!

تلعثم السمسار وارتبك قائلًا: لا بد وأن يكون هذا البواب، طلبت منه أن ينظف المنزل اليوم، قد يكون أشعل الموقد ليطهو شيء ما، لا عليكم سأذهب لأتفقد الأمر واذهبوا أنتم لمشاهدة باقي الغرف، وقبل أن يكمل أكاذيبه سمعوا ضحكات غريبة أشبه بضحك هستيري غير طبيعي يتلوها مباشرة أصوات صراخ عالية فضحك ثم صراخ وهكذا، وأشياء تتطاير وأثاث يهتز وأبواب تفتح وتغلق بقوة، وبين كل ذلك كان السمسار وزبائنه قد فروا هاربين مصدومين يصرخون أيضًا من ذلك المجهول ومن تلك الأصوات والأشياء الغريبة التي تحدث، هبطوا إلي الطابق السفلي يلهثون يمتطون جياد الرعب هاربين، يتقدمهم السمسار فوقع على وجهه ووقعوا فوقه، لا يدرون ماذا يفعلون، شيء ما قد شلّ حركتهم..

شكوا في الأمر، بل تأكدوا من سبب حدوث ذلك كله، وبالتأكيد السمسار يعي تمامًا ما يحدث، ولكنه مندهشًا، قد سمع عما

يحصُل ولكن ولأول مرة يرى ويسمع، كان يظن إنه ناجٍ مما يحدث، ولكن لا بد وأن يقع الشخص في جنس أفعاله.

في البهو كان هناك ما ينتظرهم بشغف ليكمل ما بدأه للتو.

ظهروا لأعين الزائرين كما خلُقوا وكما كانوا من قبل، ظهر الظاهر منهم فقط.. اضطروا لذلك آسفين ولكن لا بد لإنقاذ مسكنهم ولإبعاد السمسار اللعين كي لا يأتي بالمزيد، قد كانت رؤية العين أبشع ألف مرة مما حدث منذ قليل، تمنوا الزائرين لو كان ذلك كابوسًا ولكنها الحقيقة المفجعة، تلت الرؤية أحاديث صادرة من تلك الكائنات السوداء الهائلة الحجم ذات ذيول وحوافر وأنياب ظاهرة من فم أسود تسيل منه الدماء وتنفث دخانًا، تعلوه عيونُ بارزة كاحظة حمراء اللون، ثلاث أجسام على تلك الصورة البشعة قالوا بصوت أجش مبهم أشبه بصوت الخوار: أيها البشر الأشراس الأعداء، ابتعدوا حالًا وإلا أصابتكم لعناتنا، ولا تعودوا أبدًا.

صرخ السمسار ومن معه وبالكاد وصلوا للبوابة فازعين، هربوا بلا رجعة، ومن خلف ذلك كله وقفوا أصحاب البيت

معلنين رايات النصر.. وصعدوا للمنزل في هدوءٍ ووئام، يتغنون بالحب والفضيلة.

****

صرخات مكتومة

****

يجري بكل ما أوتي من قوة، يآمل اللحاق بزعيمهم، قبل أن يزداد عليه الضرر أثر إصابة قد تلقاها من الأعداء، أخلفت جرحًا عميقًا يجري حاملًا أخبارًا سيئة يتمنى لو كان ذلك حلمًا، بل في حقيقة الأمر كان كابوسًا ترتعد منه الفرائص وترتعش منه الأبدان.

دخل حاملًا أخباره المشؤومة للزعيم:

سيدي نحن في ورطة، مجموعة الكشافة التي أرسلتها للفحص والتجسس تم القبض عليهم والاعتداء من قبل المعتدين، دمروهم بل قتلوهم، آسف سيدي، هربت منهم ولم استطع إنقاذهم.

رد الزعيم مستشيط غضبًا: وماذا بعد؟ لا بد من حل مع هؤلاء الهمجى، إلى متى ستستمر هذه الأوضاع المزرية، و ها قد جاء الوقت، حانت اللحظة الحاسمة.

فخرج لساحة المعركة ليجدهم في انتظاره.

في حالة من الاستعداد القصوى والانتصار المنتظر وعقول صلبة يقويها الانتقام، مجموعة من الجنود تصطف في شكل مبهر يشهد له التاريخ، لم يسبق وإن حققه آدمي أو شاهده، كان ذلك في تلك البلاد المنزوية بعيدًا، التي لم يلتفت إليها أحد من قبل أو سمع عنها ولم يخطر على بال شخص ما بأن هذه البقعة في الأرض وتحديدًا تحتها، تمكث فيها كل تلك الوحوش الكاسرة، القلوب التي تحيا بروح التمرد والإصرار، لم تعرف اليأس قط.

وقف زعيمهم يلقي خطابه ليبث روح العزيمة فيهم ويجددها..

، ويشرح خطته للخروج ومواجهة البشر الماكثين فى الضفة الأخري قائلًا: لا أعلم لماذا يعترض هؤلاء طريقينا لكسب قوتِنا؟ ألا يشفع لهم ضعفنا وقلة حيلتنا؟ أغاضبون من الفتات الذي يتركوه لنا؟ ألم يكفيهم كل الخيرات التي يستولون عليها وحدهم؟! والتي تملأ أفواههم وبطونهم! ألا يكفي نظرات الاستهانة والاشمئزاز منا؟ فلو يعلمون كم نحن نعمل بجدٍ ودأبٍ ونظامٍ لتعلموا منا نحن الضعفاء وتخلوا عن بعض همجيتهم وعشوائيتهم التي يعيروننا بها، فهم أحق بها منا!

هؤلاء الكبار! كم تمنيت لو كنت أستطيع الدفاع عن نفسى أو عن معشر الضعفاء أمثالي أمامهم، يبدوا إننا في زمن الأقوياء، فقانون الغابة هو المسيطر والحاكم الوحيد، هو يد الطبيعة القاسية التي تصفع وجوهنا، والمطراق الذي يدب فوق رؤوسنا يحطم نبتَ الافكارِ فيها، ولكن كلا فنحن أيضًا أقوياء فلو أتّحدنا معا سنكون قوةً عظمى لا يستطيع هؤلاء التصدى لها، فلنقوم بثورة ونستجمع قوانا ونشد من آزرنا و نعد العدة لخوض الحرب ضدهم، هيا هيا يا رفاقى هيا نستعد لهم ونخرج من مسكننا ونعلن لهم أن عصورهم قد انتهت وقد جاء الآن عصرنا، فلم نعد ضعفاء فنحن كنا وما زلنا نشغل تفكيرهم وما زالوا هم يتفننون في كيفية القضاء علينا بشتى الطرق والوسائل، أنسيتوا إنهم حاولوا مرارًا وتكرارًا إغراقنا بالمياه فى داخل بيوتنا بل وحاولوا ايضًا دس السم فى عذائنا، أنسيتوا كم منا قتل أثناء عودته من العمل فقط لإنه اعترض طريق أحدهم، يا لذلك الماضي الأليم فبسببهم لم نهنأ يومًا بالعيش فى سلام لمَ لمْ يتركوننا وشأننا؟ أرأيتم فى قلب تلك المحنة تكمن قوتنا فبقدر ما هم يقلقوننا ويدمروننا فنحن نقلقهم ونشغل بالهم

ونفسد عليهم نومهم ويقظتهم، هيا نظهر لهم قوتنا التي ميزنا بها عنهم، فلنريهم كم تقدر همجينا على الإطاحة بهم.

هكذا ألقى زعيمهم خطابه الحماسي عليهم حيث أشعل النار في صدورهم وألهبتهم نار الانتقام لأخذ الثأر لذويهم والدفاع عن نفسهم فهموا لخوض المعركة وأعدوا العدة وتقدموا في جيش ذي صفوف منظمة فخرجوا للنور أمام أعين الكبار الأعداء ففزع أحدهم وصاح "نمل" وأسرع بالتقاط إحدى عبوات المبيدات الحشرية فسلطها عليهم فماتوا جميعًا وكان مصيرهم إحدى صناديق القمامة بجانب رفقاءهم السابقين.

****

اختباء

****

في الساحة الخلفية للمنزل، فتاة صغيرة تملأ المكان لعبًا وحبًا وحركة، كالعبير المنتشر بين أزهار الربيع، تشع نورًا وأملًا في الحياة، تلاعبها الرياح ملاعبة أم لطفلها الصغير وأشعة الشمس تشاركهم ذلك المرح الطفولي الممزوج ببراءة وحب، تعيش وتحيا داخل عالم عرائسها وألعابها، تلك الحياة الوردية التي اتخذت مقرها الخيال، تسير بخطواتها فى أنحاء المكان فتنشر البهجة، فتتناثر حبات الفرح وتملأ الهواء كله إلا ذلك الركن البعيد حيث تجلس امرأة ذات الفستان الأزرق، تتقلد ذلك العقد المصنوع من اللؤلؤ الذي لا يفارقها، فكاد يكون جزءًا لا يتجزأ من جسدها الذي أنهكته الأحزان، صامتة شاردة الذهن حزينة تصارع ذكرياتها الآليمة.

هرولت إليها الفتاة باندفاع طفولي قائلة: هيا هيا يا أمي نلعب سويًا .

_لا يا ديما اتركيني وشأني، العبي بألعابك المتناثرة فى كل مكان.

_أمى فلتودعي صمتك قليلًا ،شاركيننى المرح هيا والعبي معي.

_حسنًا حسنًا، ماذا تريدينني أن ألعب معكِ؟ انتظري، أود أن أعلمك لعبة جديدة، ستنفعك يومًا ما، اسمها لعبة الاختباء.

_وكيف هي يا أمى؟!

_فى كل مرة تختبئ إحدانا؛ على الآخرى إيجادها .

_حسنًا، اتفقنا، نبدأ الآن.

_ولكن عليكِ اتقان اللعبة حتى تنجو من الخسارة وتكوني الفائزة.

_ترد ديمه بحماس وبراءة طفولية: نعم نعم سأفعلها.

بدأت اللعبة، واختبأت ديمه، فتراها والدتها وتنكشف لها بسهولة، تختبئ والدتها فلن تجدها ديمه بعد محاولات، هكذا مرارًا وتكرارًا وفى كل مرة تخسر ديمه وتفوز والدتها؛

غضبت ديمه ورفضت استكمال اللعبة، فهدّأتها والدتها وشجعتها على المحاولة وأصرت على ذلك، فلعبت ديمه كارهة، أصبح الأمر وكأنه دائرة مغلقة لا نهاية لها!

ولكن انتهت اللعبة، ليس بإرادة من ديمه أو حتى والدتها، بل بإرادة خارجية؛ حيث عمّ المكان فجأة أصوات قادمة من بعيدٍ، كانت ديمه وحدها حينئذٍ، فنظرت بعينيها إلى السماء فوجدت سربًا، سربُ من طائرات تُلوث اللون الأزرق للسماء وصفائها، شعرت بالخوف يتسلل إلى قلبها وبدأت في الارتجاف، فهي تعلم جيدًا الأحداث التالية، تعرف النهاية المؤلمة، ترى المستقبل أمامها، ترى مصير قد كُتب وحان وقت التنفيذ.

كثيرًا ما كانت والدتها تحكي لها هذه القصة، قصة الحرب، قصة الغدر التي حرمتها من والداها من قبل حتى أن تولد.

ها هي الطائرات تقترب وتقترب، تساقطت القنابل كسهام غادرة من أيدى الجبناء، ارتعدت رعبًا، وأخذت تجري تبحث عن والدتها التي اتقنت اللعبة واندمجت فيها، حتى نست طفلتها

وسط كل ذلك! بحثت ديمه ولن تجدها، فقط رائحة الموت والغبار وأصوات متطايرة من استغاثات قادمة من بعيدٍ، لم يعد أمامها وسط كل هذه الحرب الدائرة والجدران المحطمة والدموع التي كادت أن تملأ الأرض أنهارًا وقلبها الذي تحطم بين كل ذلك- سوى أن تجمع ألعابها لعلها تجد فيهم بعض من قوة تستعين بها، فجريت نحوهم فوجدتهم أعزاء شامخين لا يلقون بالًا ولن يهتزوا حراكًا، فأستعارت منهم بعض من صمود، فجمعتهم وجرت بعيدًا، التهمتها الحسرة والدموع.

ما زالت الطائرات تواصل غدرها المزعوم، ومازالت ديمه تبحث وتبحث حتى تعب قلبها، فهي تحت العصف وحيدةً من كل العالم سوى ألعابها التي يحتضن كل منهما الآخر بقوة، وحيدة هى بين الأمواج الثائرة فتلقي بها فى دوامات، فى ذلك البحر الهائج الذي يلتهم كل من مر فيه، دوامات تغرق، لكنها ليست أقل غرقًا من الأنهار المنهمرة من دموع عينيها حينذاك.

فبحثت عن شط لها يأويها، فرأت من بعيد كهف صغير فى أسفل الجبل الواقع خلف المنزل، فجريت نحوه تختبئ فيه، علها تنجو، هو ضيق مظلم بارد ولكن هو المأوى، فأنزوت فى

إحدى أركانه، كاد ينفطر قلبها من البكاء، حتى جاءها ذلك الطيف يؤنسها ويُهدئها، هى تعرف ذلك الوجه المألوف، رآته كثيرًا فى تلك الصور التي تحتفظ بها والدتها فى صندوق الذكريات، كان يبتسم، كادت تنسى مع ابتسامته تلك الأهوال الدائرة، لمع فى إيديه ذلك العقد ذي حبات اللؤلؤ، أخذه وانصرف بعيدًا حتى تلاشى تمامًا.

توقفت الطائرات ورحلت، ظلت ديمه لبرهة من الوقت متجمدة الأطراف حتى أستعادت قواها فخرجت تبحث عن والدتها وعن تفسير لذلك الحلم الذي كان، وفى طريقها تعثرت أقدامها فى شيء، نعم هو ذلك العقد قد ظهر مرة آخرى ولكن أين والدتها أو ذلك الطيف أيا كان! ما زال هناك من تبحث عنه.

نظرت يمينًا ويسارًا فوجدت شجيرة لم ترها من قبل، تتوسط الطريق بين الجبل والمنزل، نظرت طويلًا واسترقت النظر، باتت الرؤية غير واضحة أثر الدموع فى عينيها، فمسحت دموعها، فرآت خيال من اللون الأزرق خلف الشجيرة، شيء ما هز قلبها، اقتربت حتى رآتها ممددة ملطخة بالدماء، ومُلقى فوق جسدها بعض من الصخور والأحجار القاسية القلب، التي

جاءت لتستكمل باقى سيمفونية العذاب بحرمانها من أخر ما تبقى لها، فأسرعت ديمه نحوها بحزن العالم كله، عجز اللسان وقتها عن الكلام، فأى حروف هي قادرة عن وصف شعور هو أكبر من كل الكلام، لم يعد أمامها سوى الصراخ فظلت تصرخ وتصرخ، تحتضن ألعابها بقوة، ولن تسعفها الحروف سوى بجملة واحدة ظلت ترددها "لماذا يا أمى، لماذا الاختباء..وماذا بعد الاختباء ؟!"

****

عقد من لؤلؤ

****

مشاعر بالفرحة الساكنة قلوب الحالمين جاءتهم اليوم بعد عقد من الأحزان، تطرق بابهم لتبشرهم ب "الفرج".. هؤلاء الذين سهروا الليالي يزرعون ويراعون نبتتهم، حلمهم وسلاحهم الذي يواجهون به ظلمة الأيام وغدرها، ذلك الاستثمار الذي لا تذهب أرباحه سُدى، مشروع مربح لا محالة -على حد قولهم- تلك النبتة الأولى والحلم الأول في قائمة الأحلام المنتظرة تلك التي تدعى "هالة".

الابنة الأولى في أسرة فقيرة جدًا، أسرة علمت أن بالتعليم الجيد لأبنائها سوف يعود عليهم بالخير الوفير والرزق الكثير، فظلوا يكدحون ويتصببون عرقًا من أجل تعليم تلك الابنة الكبرى، فضلًا عن الاخريات؛ أخواتها البنات الأصغر سنًا،هي تكبرهم، فكانت هي الأمل، ولم تخذلهم هالة قد حصلت على أعلى شهادات التقدير والمراكز طوال حياتها الدراسية حتى تخرجت بتقدير امتياز وكانت الأولى في دفعتها،

ولكن جاءت العقدة الأولى في سلسة الصدمات التي لقنتها الظروف لآبيها "صالح" ذلك الصالح الطيب الذي اعتقد يومًا ما؛ إنه سيجني ما زرعه، وذلك حين تم تعيين ابنة رئيس القسم، معيدة على الرغم من تأخرها الدراسي عن ابنته!

تخرجت هالة وكعادة العامة ظلت تبحث عن وظيفة لها تسدد بها بعض من فواتير الشقى والتعب والذل الذي صاب والديها لسنين مضت.

ولكن ازداد الأمر صعوبة حين توفت والدتها فور تخرجها، يا لهذه المسكينة، حملت فوق عاتقها مسؤولية بيتٍ بأكمله: أخواتها الصغار الضعفاء، ووالدها الطاعن في السن الذي لحق به المرض وأقعده بالبيت بلا عمل!

اضطرت أن تقبل ما تجده من أعمال، فكان هدفها الأول والآخير هو جني المال، وإن كان العمل غير لائقٍ بها والمال قليل!

حتى جاء ذلك اليوم الذي بعث الفرحة لهم من جديد، حين قرأت هالة في إحدى الجرائد إعلان عن وظيفة في فروع

جديدة لبنك مالي شعرت بدماء الآمل تسري في جسدها من جديد، جسدها المتعطش إلى الراحة،الراحة النفسية التي تشعل قواها من جديدة.

انبعث طيف أمل مصحوب بخوف مقلق، سعادة، يأس، فرح وحزن، أحاسيس متناقضة حلت ب "هالة".

اليوم حالة استعداد قصوى، قد تمت التحضيرات على أكمل وجه، هذا هو الفستان الجديد الذى تم شراؤه بمبلغ قد تم ادخاره على مدار وقت طويل وهذه هى الحقيبة الباهظة الثمن والتي لا ترتديها إلا في المناسبات الهامة، وهناك الحذاء الملمع، هذا الحجاب الجديد أيضًا والملائم مع الفستان.

وهكذا ظلت هالة تحدث نفسها وتراجع ما ينقصها قبل انتهاء الوقت قبل المقابلة، التي طالما حلمت بها وانتظرتها منذ زمن، انتابها شعور بالسعادة فأخيرًا قد سنحت لها الفرصة للعمل، أخيرًا ستتوج دراستها بعمل يعوضها عن تعب ومجهود سنين كثيرة وبطالة لسنين أكثر ولكن شعورها هذا يختلط ببعض القلق من إمكانية عدم قبولها، تخشى أن تتحطم آمالها هذه

المرة، طالما تقدمت إلى وظائف آخرى ولكن تم الرفض فهي تتمسك بالوظيفة هذه المرة لإنها فى مجال تخصصها فضلًا عن العائد المالي والذي سيرفع من مستواها المتواضع.

حادثها والدها قبل يوم: يا بنتي قلبي حاسس أن الوظيفة المرة دي وش السعد علينا، بدعيلك ليل نهار،حتى والدتك جاتلي في المنام توصيني عليكي، تقولي هالة، هالة يا صالح خد بالك منها، خدي بالك من نفسك يا بنتي، إنتِ آملنا كلنا

ردت هالة: طبعا يا والدي أنا مقدرش أخيب ظنك، من ناحيتي أطمن، لكن ربنا يسهلها المرة دي واتقبل، هتفرق كتير معانا.

رد والدها: بدعيلك يا بنتي بدعيلك.

ارتدت ملابسها وتأنقت ووقفت أمام المرآة ناظرة بعينٍ حائرة يمتزج بها الآمل والخوف، تنفست الصعداء لتهدئه نفسها قليلًا، حاولت إقناع نفسها بأنها على ما يرام وأنها على أكمل وجه وأفضل صورة بشكل يجعل قبولها أمر سهل يسير وعزمت على الخروج.

قبل أن تغادر غرفتها تذكرت شيئًا هامًا ففتحت الدرج الخاص بمقتنياتها فألتقطت عقد من اللؤلؤ الخالص، قد أهدته لها والدتها المتوفية، فهو عزيز عليها بقدر ما يحمل من جمال وجاذبية، أحست بأن قد جاء الوقت لارتدائه طالما شعرت بالآمان بوجوده معها لأنه يمثل ذكرى من ذكرياتها مع والدتها التي افتقدتها كثيرًا، التفافته حول رقبتها يعطى لها شيء من اطمئنان، تقلدت العقد وغادرت المكان، ذهبت إلى البنك حيث المقابلة، هى الآن فى غرفة الانتظار يجاورها الكثير من الحسناوات اللاتي أتين من أجل التقديم للوظيفة، فهن أكثر منها بريقًا وجذبًا للانتباه فضلًا عن ملابسهن المثيرة الباهظة الثمن وشعرهن المتدلي وألوان المهرجانات المرتسمة على وجوههن؛ مما زادها الأمر ارتباكًا وشعرت بأن فرصتها ضعيفة للفوز فى هذا السباق، فلا بد من حل، لا بد من الخلاص، لا ينبغي أن تكون تلك هي النهاية لن أستسلم للظلم مرة آخرى!

سمعت اسمها ممن ينادون عليهم للدخول فهمت للاستعداد وهي في طريقها للدخول قامت بمحاولة آخيرة دعتها إليها

أشكال الحاضرين، ورغبتها القوية فى القبول، فقامت بخلع حجابها، تعقد العقد حول رقبتها فشدته عنوة فتقطع العقد وانفرطت حباته قهرًا.

****

كامل الأوصاف

****

استيقظ عمر بعد أن قام المنبه بدوره اللعين في رمي سهامه على أذنه ليسرقه من أحلامه السعيدة، فهب جالسًا والتقط من فوق "الكومودينو" إطار يتأمله، فيه صورة قريبه ذي المركز المرموق والأخلاق الحسنة، والتي طالما يضعها بجانبه، حتى يستمد منها قوته ويستزيد بها من طاقته فلمَ لا! فهو القدوة الحسنة في حياته والتي يراه دائمًا كامل الأوصاف، لا يشيبه نقصُ ولا يعيبه عيبُ، متمنيًا أن يخطو خطواته وأن يسير مثله يوما ما.

عمر ذلك المراهق الكسول ضعيف البدن والشخصية ألا إنه يحمل داخله بصيصًا من نور ولكن سرعان ما يطفئه له أصدقائه.

فيذهب كعادته إلى مدرسته الثانوية ككهل عجوز يجر فى أقدامه حتى يرتمي داخل زنزانته المدرسية رافعًا أذنيه يحاول

التقاط بعض الكلمات الملاقاه من شفاه أشبه بالمدافع التي ترمي بقذيفتها على العدو.

يعد اللحظات حتى يحين موعد الخروج، فاليوم سوف يرى قريبه المتيم به في حفلة عيد ميلاد الجدة، فاليوم عيد وكيف تُفتح المدارس في الاعياد؟!

يلح عليه أصدقائه أن يصطحبوه إلى ملهى ليلي؛ لقضاء أوقات ماتعة للترفيه عن النفس قليلًا، قبل أن تعبأ بهم الامتحانات الثقيلة على قلبهم ويحاول أن يتملص منهم قائلًا: احنا داخلين على امتحانات، المفروض نقرب لربنا يعني مش كدا.

فردوا عليه قائلين: ياعم احنا مش هنعمل حاجة تغضب ربنا هنروح شوية نرقص مع صحابنا ونرجع على طول!

ويرد عمر مستسلمًا كعادته: ماشي! مع إني مش موافق بس هروح. ويحدث نفسه قائلًا: "صحيح أصدقاء سوء، ولكن لا يضر القليل من التسكع و الانحراف طالما في يومًا ما سأكون مثل كامل الأوصاف، فأحذو حذوه وسوف التصق به طوال الوقت حتى أصبح مثله".

ويحين موعد الخروج فينصرف مستنشقًا أكسجين الحياة ولكن دائمًا ما يحدُث ما يعكر صفو تلك اللحظة المنتظرة، إنه ذلك الرجل العجوز بائع الذرة على الرصيف، ذو الملابس البالية المتسخة دائمًا ووجهه المفتقر من أي مظهر من مظاهر الحياة؛ كصحراء جرداء ينبُع من جوفها الصبار المُر.

فينظر إليه باشمئزاز ويبادله الرجل نظرة غير مفهومة دائمًا وكأنه يسمع ما يدور في ذهنه، فيلتفت بوجهه نحو الجانب الآخر حتى يزيل عن ناظره قبح ما رآه.

فى المساء أجتمعت العائلة في بيت الجدة لحفلة عيد ميلادها، هو يرتدي أفضل ما لديه حتى يبدو مظهره جيدًا أمام قريبه العزيز عليه، ولكن كاد الوقت ينفد ولم يأتِ بعد ولمَ لا؟! فله عذره، له الكثير من المهام التي يحملُها فوق عاتقه، كان الله في عونه فلولا إلحاح بعض الأقارب عليه لحضور الحفلة؛ لما حضر لضيق وقته!

بعد قليل دخل رجل ذي شعر بني لا يضاهيه في شياكته أحد من الحاضرين، تسبقه رائحة عطر تنم عن ثمنها فضلًا عن

ملابسه "الماركات العالمية" يرتدي حلته السوداء وربطة عنق حمراء، ماسكًا "البيب" في يده، فيتجه الجميع إليه يلقون عليه تحياتهم شاكرين أفضاله عليهم يلتمسون بعض الرضا

فيفرح عمر كثيرًا ويحاول مثل الباقيين أن يتودد إليه ويشق حديثًا معه، لم يتعد بضع كلمات دارت حول ترحيب وثناء عليه وإنه يتمنى أن يصبح مثله يوم ما ويبادله الآخر الوعود في تحقيق ذلك، صار سعيدًا مسرورًا لأنه أخيرًا بدأ يلتمس أول طريق له نحو النجاح، وما لبث إلا قليلًا من الوقت حتى استئذن قريبه المرموق لإكمال أعماله الكثيرة، فتذكر عمر موعده مع أصدقائه في الملهى فأخبر والديه إنه سوف يذهب للمذاكرة مع أصدقائه ويغادر المكان.

يصل إلى الملهى حيث أتاه شيء من جراءة لم يعهدها من قبل، فشد انتباهه ذلك الرجل الواقف أمام الملهى، والذي يبيع كتب دينية ومصاحف وسبح، نعم هو يعرفه، إنه بائع الذرة ولكن لماذا يقف هنا وماذا يفعل؟! فيقترب إليه ليحادثه للمرة الأولى ولم يدرِ لماذا أتخذ هذه الخطوة في هذا الوقت بالذات هل هذا

فضول منه؟ أم استكمالًا لرحلة الجراءة والشجاعة التى بدات للتو؟

ويتقدم بخطواته نحوه متسائلًا:

_مش إنت بتاع الذرة اللي بتقف على ناصية الشارع عندنا اللي في ...فيقاطعه البائع قائلًا:

_ايوة يا ابني

- ايه ده إنت تعرفني؟!

_ايوة عارفك، انت اللي كل يوم لما بتعدي قدامى بتلف وشك الناحية التانية.

فشعر عمر بالخجل، فيرد متلجلجًا: أنا .. أنا ....

فيقاطعة البائع: لا يا ابني أنا مش بلومك، انت مش أول واحد تعمل كده وليك حق؛ شكلي ومظهرى يخلوا أي حد يعمل اللي إنت عملته ده.

-طيب ليه مش بتحاول تكون أحسن ..و

ضحك البائع ضحكة قصيرة باردة وتتبعها تنهيدة طويلة تنم عن مدى حملٍ ثقيلٍ على قلبِه وكأنه حجر لم يتزحزح.

-يا ابني أنا في يوم من الأيام كانت الناس بيترموا عليا عشان بس يسلموا، كنت لما أدخل مكان، الكبير قبل الصغير يقف احترامًا ليا، كان ليا جاه ونفوذ وفلوس، بس مكنتش حاسس بقيمة النعمة دي، لما كنت مراهق كنت بحاول أكون أفضل كان جوايا شيء حلو، كان ممكن أبقى أحسن، لكن أصدقاء السوء هما اللي غاووني وأنا كنت ضعيف قدامهم، كبرت وبقيت زي ما قلت لك كده صاحب نفوذ ومال بس بضعفي قدام نفسي قبل كل شيء وصلت للي انا فيه ده.

_إزاي؟

_كنت بسهر معاهم كتير وأقضي كل أوقاتي فى الملاهي الليلية والديسكوهات وأصرف فلوسي عليهم، كنت فرحان بنفسي، الشاب الوسيم اللي كل حاجة بيعوزها بيلاقيها، ومكنتش بعمل أي حاجة مفيدة في حياتي، ويوم ورا يوم لاقيت

نفسي بخسر في فلوسي وأصحابي ابتدوا يبعدوا عني حتى مراتي!

_مراتك! إنت متجوز؟

-ايوة ولما زهقت مني ومن عمايلي؛ خدت الأولاد وسافرت بره ومعرفتش عنهم حاجة، بصيت لاقيت نفسي لوحدي في الدنيا واتدهور بيا الحال من شغلانة للتانية، صابني المرض لحد لما وصلت للي إنت شايفه ده، أنا بشوفك كل يوم بتعدي قدامى مع أصحابك، بس انت فيك حاجة مختلفة عنهم، فيك خير، كان نفسى أكلمك وأنصحك لإني كنت شايف نفسي فيك بس انت دايمًا كنت بتبعد عني.

وبمحاولة من عمر أن يبدو متماسكًا يتسأل:

-طيب انت إزاى بتبيع مصاحف وسبح في المكان ده بالذات مش حاجة غريبة دي؟!

-لاء يابني أنا بوزعهم ببلاش، بخصص جزء من فلوسي، صحيح هو صغير مش بيجيب إلا مصحفين تلاتة على كام سبحة بس أهو ثواب يمكن ألاقي حد فيهم لسه جواه ذرة خير،

يمكن أكون سبب في هداية حد فيهم لإني مش عايز حد يعمل اللي عملته.

_لملم عمر نفسه وأنهى حديثه وانصرف متمنيًا له التوفيق والسعادة.

فقرر تاني قرار فب حياته وهو انقاذ الموقف، دخل الملهى باحثًا عن أصدقائه ليصرفهم عما يمارسونه من ضياع، فضرب بنظرة هنا وهناك فلم يرَ إلا أكوام من لحم متناثرة بعضهم يرقص والبعض الأخر مترامي، يحملون ذلك السم الحلو، و رجال وما هم رجال، وراقصة ترقص رقصة هي أشبه برقصة الموت الآخير على عزف شيطان متخفي.

شيء ما جعله يشمئز من المنظر، شيء من داخله يشع نورًا وبصيص خير يجعله يكره ما يراه فيسمع صوت أصدقائه ينادونه و يشاورن له حتى يأتي لمشاركتهم؛ فاقترب منهم محاولًا اغاثتهم وما لبث أن نطق فقالوا له: ألم ترحب بصديقنا الجديد؟

فألتفت ليرى ذلك الصديق الجالس معهم فوجده رجل ذي شعر بني لا يضاهيه في شياكته أحد من الحاضرين تسبقه رائحة عطر تنم عن ثمنها فضلًا عن ملابسه ذات "الماركات العالمية" يرتدى حلة سوداء و ربطة عنق حمراء ماسكًا "البيب" فى يده.

****

زينة

****

كم أرى الكون جميلا! كل الأشياء حولي ترقص فرحًا وابتهاجا، أوراق الشجر والزهور معشوقتي، يا لروعة الطيور حين تزقزق معلنة وقت مجيئي كعروس تزف يوم عرسها، والأشجار والأرصفة وعمدان الإنارة يشاركون في هذا الحفل البهيج!

لمَ لا؟! أنا الآن في كامل أناقتي وجمالي؛ حتى غارت مني فتيات الحي، اسمعهن يتلامزن ويتهامسن فيما بينهن حقدًا وغيرة أسمعهم يتمنين أن ينالن قسطًا من هذا الجمال، فقد خرجت للتو من محل تزيين العرائس، تزينت كما لو كنت عروسًا تسير في موكبها، أميرة لكن بدون أمير، لا يهم، ألوان الطبيعة الساحرة تتربع فوق وجهي، التمت الفراشات فوق رأسي ترتشف رحيق الزهور، يداعب الهواء حرير شعري المنسدل، حتي مجموعة الأطفال هناك يلعبون فَرحين مهللين غير عابئين بأمور الكبار اللعينة، يشاركون في ذلك الاحتفال.

شاركتهم بذكرى طالما آلمتني ما حييت، تلك الأيام التي كنت فيها طفلة منبوذة لا يرضى أحد أن يلعب معها، أتذكر تلك الأيام بل آراها أمامي، أراهم يلعبون في تلك الساحة هناك، يلتفون في دوائر يلعبون الغميضة، وحين رأني الجميع هربوا، رفضوني ورفضوا طفولتي، حتى التي كانت مغمضة العينين!

تبًا لتلك الذكريات! تبًا لهؤلاء الأطفال! وتبًا لها تلك التي ظلت تشاهد صامتة ذاك الأذى دون حراك، فأنا الآن ذاهبة إليها، سأريها نفسي، سأجعلها تلعن تلك النظرات العابسة التي ظلت ترمقني بها لسنوات مضت، حتى كادت أن تقتلني، سأذهب إليها فى منزلي حيث تمكث دائمًا، وترقد في خمود، وتحيا كالموتى، سأذهب إليها لعلها تستعيد الحياة.

زينة، تدعى زينة، هكذا كان الجميع ينادونها، ولكن كيف؟! فهي لا تحمل شيء من أسمها، تلك القبيحة العانس والتي تخطت الأربعين، فما تظن نفسها فأنا الآن أجمل!

ها أنا اقتربت من المنزل، بدأت أشم رائحتها، أتتبعها، الرائحة في كل مكان، على باب المنزل، فوق الجدران، حتى تلك الآريكة أمام المرآة!

فرأيتها في نفس جلستها المعتادة، لكن هذه المرة حين رآتني وقفت تنظر لي بسخرية، تجاهلتها ..تتبعتني بتلك النظرات ومن ثم ابتسامة شقت جدار وجنتيها، ولكنها ابتسامة صفراء جاءت تعزف سيمفونية السخرية التي بدأتها؛ فقرعت طبول الحرب بيننا، أيتها الخاسرة أنا الأقوى الآن، لا تحاولي أن تستعملي أساليبك المعتادة معي، لن أنصت لكِ بعد الآن، دعك من دور الضحية المسكينة، سأقتل ضعفك و مقتك لذاتك سأحررك من كل آثام سذاجتك، ما زالت غير عابئة بمظهري وجمالي، ما زالت تتجاهلني!

أصابني الجنون؛ التقطت المزهرية جانبي وأقتربت، فأقتربت هي، فرفعت يدي عليها ففعلت، فرميتها بالمزهرية على وجهها حتى سقطت المرآة أرضًا، وسقطت معها هي، فالتقط جزء من الزجاج المكسور، ونظرت إليه حتى رأيتها، تلك

الدميمة العانس التي تخطت حاجز الأربعين ولكن هذه المرة ملطخة وجهها بألوان زينة.

****

خلف أوراق البطاطا

****

يسير بائع البطاطا ذو الملابس البالية بصحبة أخيه الصغير، يناشد بطون الجائعين ليبيع لهم حلوته الناضجة فوق نيران قلبه، تزدحم حوله الأطفال فَرحين بقدومه، تلك الفرحة التي تنتزع منه بعض البسمات، لالتقائها مع ذلك الطفل الحبيس بداخله الذي توارى خلف قضبان ظلمة الأيام.

انطلق تاركًا خلفه أشباح الماضي تطارده، يصارعها ويخفق وتعاوده من جديد.

وبين كل ذلك ينتظر زائر معتاد، والذي تعوّد أن يأتيه يوميًا يشتري منه البطاطا وبرغم كونه زائر غير مرغوب فيه إلا أنه اليوم أُعد له هدية خاصة، أحضرها خصيصا له، كانت تخص الزائر يومًا ما ونُسيت بين الأدراج المغلقة فحين تذكرها البائع صمم على إحضارها ليردها لصاحبها، فربما هي استغاثة صامتة وصرخة موقوتة و إشارة لا يفهمها إلا الحمقى.

ينظر بشغف ويجول بعينيه جيئًا وذهابًا، ربما تأخر قليلًا عن موعده، ربما لم يأتِ اليوم!

نظر إليه أخوه الصغير وقد فهم مغزى تلك النظرات في عينه كيف وقد كان شاهدًا على إحضار الهدية، ومن قبل كان شاهدًا على كل ما حدث من ذاك المنتظر!

نطق ضاربًا حاجز الصمت، مشارك أخاه همه قائلا: لا تقلق سيأتي لا محالة، هو منذ أن عرف مكانك ولا يفوت الفرصة أبدًا، يجيء ليمارس عليك عقدته القديمة، لينفش ريشه المصطنع عليك.

_ رد أخوه محاولًا الثبات بعد تشتت: لم أكن قبل اليوم قلوقًا، لم يعرف القلق طريقه إلي إلا بعد ظهور أمثاله، أود أن ألقنه درسًا لعله يستفيق من غيبوبته، ولعلها تكون هي الشافية لآلامي والمياه التي تخمد نيراني المشتعلة والتي لا تهدأ أبدًا.

_رد الصغير محاولًا إخفاء غضبه ولكن قد خانه الكتمان وانطلق منفعلًا: أتعلم، إني انتظر قدوم ذاك المتعجرف المتكبر

اللئيم، راسب الثانوية العامة! لا أعلم كيف كنتما أصدقاء سويًا في صف واحد، ذلك الفاشل اللعين!

وبين قلق وحيرة وغضب ظهر من بعيد، مرتديًا حلته الباهظة، جاء مهرولًا بعد أن أغلق باب سيارته الفارهة، قادمًا إليهما، أخرج محفظته المكتظة بالنقود والكروت المصرفية وما شابه، وبدأ دوره التمثيلي قائلا: هيا اعطني بعض من البطاطا، بأسرع ما يكون لدي الكثير من الأعمال المنتظرة، سيقف العالم دوني، يحتاجونني وبشدة. وأشعل سيجارته نافخًا فيها غلٍ قديم مخبأ بين مظاهر الثراء الفاحش، تلك المظاهر الخدّاعة البّراقة والتي لا تحتوى إلا على أجساد خاوية من شعور و ضمير.

بحث البائع بين كومة الأوراق المبعثرة أمامه عن تلك الورقة التي أعدها خصيصًا لذلك المشتري، لف البطاطا فيها وأعطاه إياها وتكلم مبتسمًا على غير عادته: تفضل البطاطا الفاخرة والمعدة في ورقٍ خاصٍ لك لا يليق إلا بك، حافظ عليها فهي غالية والغالي لا يُعطى إلا للغالي أمثالك!

أخذها المشتري متوجسًا من ذلك الأسلوب فقد تعود منه الضيق والحنق أما اليوم فهو على غير عادته!

فتح الورقة ببطء شعر وكأن هناك قنبلة ستنفجر في وجهه، فتحها بحرص شديد بحث عن شيء مخبأ فيها ..نظر بتمعنٍ وفجأةً تغيرت ملامح وجهِه وتحولت إلى اللون الأحمر المائل للسواد، التفت ناظرًا بغيظٍ للبائع، لم يتفوه ببنت شفة، فأخذها وانصرف.

وفي المقابل كان البائع يملؤه مزيج من الشعور بالانتصار و الفرحة والهزيمة والظلم، فانطلقت منه ابتسامات لا طعم لها ولا معنى فقط أطلقها ليغيظ ذلك المغرور.

ضحك الصغير مجلجلًا قائلًا بصوت عالٍ يُسمع قبل أن يستقل الأخر سيارته: ليت كل شخص يعرف أصله.

فانطلقت السيارة مسرعة بغير عودة

_استكمل الصغير موجهًا حديثه لأخيه: نسى أنه كان فاشل الصف وكنت أنت مساعده فضلًا لتفوقك عليه كنت أنت أحق بدخول الجامعة بدلا منه، واشتغال منصبه الذي لا يستحقه.

رد الأكبر: نعم أنا أحق ولكن المال يفعل أكثر من ذلك، يستطيع أن يشتري أي شيء، و أن يبدل أوراق بأوراق وشهادات بأخرى ومناصب من تريد، هو نسى كل ذلك، لذلك وضعت له اليوم ما يذكره. انصرف الجميع وبقيت تلك الورقة وحيدةً على الأرض تداس بالأقدام، تلك شهادة دراسية مدون أعلاها اسم ذلك المتعجرف الثري، وبجواره كلمة"راسب"

****

قبر من الأحياء

****

سكون تام يُخيم في المنزل منذ فترة طويلة لا يرحل، أحياء موتى وإن شئنا وصف أكثر دقة فلنقل أحياء على حافة الحياة، يأويهن منزل لا تُفتح أبوابه إلا للزائرين مرة كل عام، كقبر ينعم موتاه بممارسة احتياجاتهن الأساسية في الحياة يأكلن و يشربن وأيضًا يشاهدن التلفاز_ أو صندوق الدنيا_ الذي من خلاله تعرفوا على الكثير من معالم العالم الخارجي البعيد جدًا عنهم، أبعد من أعالي قمم الجبال وأبعد من أطراف الكرة الارضية فذلك الصندوق هو الذي يذكرهن دائمًا بأشياء كانوا قد عاشوها بالفعل أثناء طفولتهن وقتما كانوا في مدارسهن ولكن انتهت المأساة بعدم اكتمال دراستهن، يحلمون بيوم أن يُفتح لهن بابًا للخروج مرة أخرى ويأملنّ ذلك تعاطفًا من والدهم بأن يحنو عليهم ويخرج بجثثهم إلى الخارج يتنفسنّ نسيم الحياة، وأن يخرج من جعبته ذلك المفتاح اللعين الذي

طالما حلموا به وتمنوه، والذى أصبح الحصول عليه هو أقصى أمانيهنّ!

ثلاث بنات تستوطنهنّ الشيخوخة رغم ريعان شبابهنّ، يلتفنّ حول والدتهنّ التي ودعت كل مباهج الحياة منذ زمن بعيد فى غرفة أشبه بقبر يبتلعهنّ في عمق الأرض، يتهامسنّ فيما بينهن، تستعرض كل منهمن بعض من بقايا أمنياتهنّ التي تعد فى الأونة الأخيرة متنفس لهنّ وهواء رئيتهنّ لاستكمال الباقي من عمرهنّ الفاني.

تقول أكبرهم: ليتني استطيع أن أتمشى قليلًا بجانب أحد الشواطىء وأرى البحر الذي طالما سمعت عنه كثيرًا، وقرأت عنه في القصص والروايات، وأن تحوطني الأشجار والنباتات وأتنقل بينهم كما تنتقل الفراشات.

تكمل الثانية وتقول: أما أنا فأتمنى أن أتنزه في الحدائق المليئة بالأراجيح، استعيد طفولتي التي نسيتها وفقدتها، أشاهد المهرجين على مسارحهم وأضحك من كل قلبي على نكات لم التقِ بها منذ زمن.

وتُنهى الثالثة بقولها: أتمنى أن ارتدى فستان طالما حلمت به وألعب مع أطفال الحي، نجري ونتسابق ونلعب الأستغماية وينهرنا أحدهم لضجيجنا فنجري فَرحين ونعود مرة أخرى نُكمل شقاوتنا.

وتستمع لهنّ والدتهنّ وتلتزم الصمت الذي اعتادت عليه منذ فترة بعيدة ويسألونها لما يا أمي غير مسموح لنا بكل ذلك؟فتشق الأم حاجز الصمت بينهما وتنطق ببضع كلمات لا تتذكر سواها في قاموس المفرادات: هذا ما تربى عليه والدكنّ و وجد عليه آبائه، فالبنات مصيرهنّ البيت لا يغادرونه إلا لمنزل أزواجهنّ، ويسألونها ولما لا تشاركينا أحلامنا لتحيين على الآمال مثلنا فتقول: وهل يحيا الموتى بعد موتهم؟!

فيتعجبنّ من قولها ويتسألون لما تصر والدتنا على دفن الباقي من حياتها هل يحكم أحد على نفسه بالموت مرتين؟!

وأثناء نثر أمنياتهنّ فى الهواء، التي اعتادوا يوميًا أن لا يتحدثنّ غيرها، طرق باب البيت، فهمّت الصغرى لفتح الباب دون معرفة الطارق، فالطارق معروف وهو الأخ الأصغر

والذي يعود كل يوم في مثل ذلك الوقت بعد إنهاء يومه المليء بالألعاب والتنزه في كافة الأماكن كما يحلو له، فيدخل ليكمل يومه بصحبة التلفاز ومشاهدة القنوات والبرامج المحببة لديه وهنا يبدأ العراك اليومي بين البنات وأخيهن والتي تنتهي بانتصار الطرف الأقوى واستحواذ الأخ على التلفاز وحده وذلك بعد تدخل الأب لنصره ابنه ونهرهنّ بشدة لضجيج افتعلوه، فالابن لا يختلف كثيرًا عن والده فهو شرب من طباعه وورث موروثه، تمتع بكافة الصلاحيات يفعل ما يشاء دون أن يمنعه أحد، فتعود البنات إلى مقرهنّ الذي لا يغادرونه ويستكملون سرد باقي أحلامهنّ.

ولكن مازالت بعض الأماني تصارعنّ، وطاقة الشباب تُغريهنّ نحو التمرد والفوز بحريتهنّ، جالسون في قبوهم منتظرين تلك اللحظة الحاسمة التي يسعدون فيها بذهاب الأب إلى غرفته لينعم بنوم عميق، ففي هذا الوقت من كل يوم يتطلعون إلى ممارسة حق لهم فى الحياة، إلى زحزحة نافذة يطلون منها، إلى عالم طالما تمنوه وأرادوا يوما العيش فيه وإلى التلون بأحداثه والتصبغ بأحزانه والتعرف على أسراره، يدفعهم

فضولهم إلى ذلك كل يوم ،هاهي تلك اللحظة المنتظرة قد أتت، ذهب الأب إلى غرفته بعد ما أغلق جميع المتاريس وتأكد من غلق جميع الأبواب، هرول البنات الثلاث إلى النافذة يفتحونها يتلصصون و يتصارعون حول من يتقدمهم ليحظى بصورة أوسع ورؤية أوضح وعيش أقرب، ينظرون إلى ضحكة تلك الفتاة ويقلدونها وإلى فستان هذه ويتخيلون ارتداء مثله وإلى عرس في أخر الشارع فيحلمون بيوم عرسهنّ، وتظل الأم كأن على رأسها الطير ثابتة لا تتحرك، وقرب موعد استيقاظ الأب يعودون سريعًا ويستمرون في مزاولة طاعتهم له وتقديم فروض الطاعة والولاء وهكذا في باقي الأيام، ينتظرون فينام فيهربون وينظرون خلسة عبر النافذة ويعودون والأم ما زالت تحتفظ بثابتها!

وفى يوما ما وجدوا دعوة لحضور حفل زفاف أحد أفراد جيرانهم قد سقطت من أيدي أخيهن سهوًا ، والذي امتنع الأب عن الحضور وبالتأكيد سيشملهن ذلك القرار ايضًا، وكالعادة لا يحضرنّ مثل تلك المناسبات إلا قليلًا، فتذمرنّ وغضبنّ في داخلهنّ دون إظهار انفعالاتهنّ حتى لا يُعاقبنّ على جرمهنّ

هذا! فقادهمّ فضولهمّ والتمسك بأطراف خيط أمنياتهنّ إلى الغوص في ممارسة حريتهنّ التي افتقدوها في كنف والدهنّ_ إلى الخروج_ ولكن هذه المرة ليس بالخروج برؤوسهن عبر النافذة ولكن بالخروج عبر باب البيت وحضور حفل الزفاف! انتهزنّ فرصة غياب الأب وأخيهم وسارعنّ إلى تنفيذ خطتهم برغم محاولات الأم لمنعهنّ ولكنهن أصروا فهي فرصة لا تأتى كثيرًا.

فارتدن أجمل ملابسهنّ والتي يملؤوها الغبار داخل خِزانتهنّ وتزينّ بأجمل العقود والإكسسوارات، واستعدنّ للخروج، مع كل خطوة يخطوهنّ للخارج تزداد ضربات قلبهنّ فيحاولوا تهدئتها قليلًا حتى لا يسمعها الأب في مكانه! ومع أول خطوة بأرجلهن وهبوب نسمات الهواء الطلق على وجوههنّ وتلفح ضوء الشمس عليهنّ والتي كانت كالنار كادت أن تحرق بشرتهنّ، شعروا بإنهنّ كمولود جديد ما زال يتعلم المشي على الطريق فزحزحوا بأرجلهم وتساندوا على الحوائط والجدران فلولا عامل الجاذبية الأرضية لافتقدوا ثباتهم وأصابهم دوار الارض تحت أرجلهم!

قد اقتربنّ من مكان الحفل المقصود فرأوا كم كبير من البشر يتراقصون و يغنون على أنغام المعازف والآلات الموسيقية، صخب يملأ المكان كاد أن يضر بآذانهنّ وعلى الجانب الأخر يجلس العروسان، ترتدي العروس الفستان الأبيض الناصح الذي يعكس بياض قلوبهن، والكثير من الفتيات المتلونات بكل الألوان المتاحة ويرتدنّ أبهى وأجدد الملابس وأفخمها، فشعرنّ بإنهن كبشر خرجوا من كهفهم للتو، وبعض الفتية الذين يتغامزون ويتهامسون فيما بينهم ينظرون إليهنّ ويضحكون، توجهت إليهنّ النظرات والتساؤلات عن ماهيتهنّ، تهامس البعض وتشجع منهم وتقدم ليسالهنّ، تلجلجوا البنات وامتنعوا عن الكلام، أصابهنّ خوف من ذلك المجهول الذي جاء ليخترق حاجزهنّ الخرساني وخصوصياتهن، تذكروا كلمة أبيهم لهم دائمًا حين طفولتهم: "احذروا من الذئاب البشرية فنحن نحيا في غابة، مع احمرار عينيه واقتطاب جبينيه" تراجعنّ للخلف فاصطدمنّ ببعض السائرين فيعنفهنّ ويوبخهنّ، دوامة ابتلعتهنّ نحو دنيا جديدة عليهنّ، فبكوا من هول الموقف ولم يجدنّ مخرجًا سوى الابتعاد بل الجري بعيدا عنهم وترك

دنياهم الغريبة، فضحك عليهم الجميع لغرابة رد فعلنّ، فتسابقوا حتى يعودوا سريعًا إلى البيت واغلقوا الباب خلفهم بالمتاريس ليجدوا الأم تلازم الصلاة والابتهالات ليعودوا سالمين وأن لا تصيبهم لعنة الأب إذا عاد فجأًة ولا يجدهنّ، فلازموا أماكنهم المعتادة واستعادوا هدوؤهن مرة أخرى حتى قرروا الاكتفاء فقط بالتطلع عبر النافذة مودعين عالم تمنوه.

وفى اليوم التالي جلسنّ في قبوهنّ ينتظرن تلك اللحظة الحاسمة التي يسعدن فيها بذهاب الأب إلى غرفته ويذهبن لزحزحة شباك النافذة يتلصصن و يتصارعن حول من يتقدمهن ليحظى بصورة أوسع ورؤية أوضح وعيش أقرب، ليتفاجئنّ بوجود الأب خلفهنّ، تسمرت أقدامهنّ على الأرض، تصببت حبات العرق على وجنتهنّ وكانوا في انتظار الحكم بالإعدام، كأصنام محكوم عليهم بالكسرِ والهددِ، ليبادلهن الأب بنظراتِ غاضبة كسهام قوات عدو معادية تخلو من أي معاني العطف أو الكلمات الحانية، فيصب غضبه عليهن بعبرات قاسية تقتل براءة طفولتهنّ التي ما زالت عليهنّ طاغية وأصدر فرمان من حاكم طاغية بالمنع من النافذة والتلفاز لعدة أيام أتية.

فعادوا إلى أماكنهم الأولى بجوار والدتهنّ يشاركوها الصمت وكأن على رؤوسهنّ الطير حتى ملأ السكون المكان فلم يعد هناك متسع لنثر باقي امنياتهن!

****

قصة حياة

****

لا أتذكر منذ متى كان وجودي في هذا المكان، فقد وجدت من حيث يأتي الوجود، تجربة مررت بها من قبل جعلتني أمقت حياتي الآن، قد كنت أحيا نعم الحياة، أرهقتني المقارنة بين ما كنت عليه وما أنا عليه الآن، كم أكره هؤلاء الغزاة الذين سلبوني موطني وأرغموني على البقاء معهم في موطنهم والتشبه بأفعالهم و أن أمتطي أحصنة روتينهم وآلامهم وصراعاتهم، منذ أن ركلوا قدماي وهى تخشى السير ضد تيارهم، فسيرت معهم ومثلهم!

قد كنتُ ملكًا في مملكتي الخاصة، قبل أن أتمنى وأطلب، أُجاب من حيث لا أدرى ،لا أعبأ بمشكل ما، لا انشغل بالغد، و على ثقة بالخير دائمًا، أتكئ على وسائد من نعيم وحرير من اطمئنان، يأتيني طعامي و شرابي بمجرد غمضة عين، لا أبرح مكاني أبدًا، فقط أتربع فوق عرشي أتلذذ بمتع الحياة و أتغنى وأرقص أحيانًا حتى جاءت اللحظة الفارقة السارقة لكل

ذلك النعيم، سماء دنيايا قد انفتحت استشعرت هواء غريب اخترق صدري كاد يخنقني، وسمعت أصوات لم أعتد سماعها من قبل، تملكني رهبة وخوف وقتها وبين كل ذلك امتدت يد فالتقطتني من مملكتي، حاولت التملص منها والهروب والانزواء منها لكنها أقوى فأخرجتني ففزعت وبكيت بل صرخت، شعرت برعب من المصير، ما هذه اليد الغادرة؟ ولمَ اقتحمت عليَ دنيايا؟ كالدمية أنا بين الأيادي أتنقل بين الواحدة والآخرى ينظرون إليَ فَرحين مهللين بانتصارهم بالحصول عليَ، بل ويباركون ويرقصون، قابلوني بالتهاني والزغاريد حتى وضعوني في يد هي الأحن ضمتني إلى قلبها ،حيث دقاته المعتادة، نعم هذا هو القلب نفسه، هذه هي النبضات التي كنت أحيا بجوارها أسمع صوتها الآن، لا تبرحيني عنكِ ولا تتخلِ عني ضميني إليكِ، أشعريني بالحنان كما كنت أشعر، فطمأنتني بضمة عوضتني عن براح كنت أحيا فيه وحدى، وضيق عالم وجدُت فيه الآن، إنه حضن أمي.

****

غريب في الليل (خاطرة)

****

في هدوء الليلِ والصمت يعم المكان، تفوح منه رائحة الكأبة، تئن منه حوائط الغرفة، ويفوح من أنفاسي ضجيج شقائي طوال النهار. كسهام تقصف الأعمار، وحدي كالعادة أشعل سيجارتي، أنفخ فيها همومي التي عانقتني حد الاختناق، أنظر من النافذة خلسة لعلي أجد ما يسرقني من وحدتي أو أجد من يوجد فى نفسي الرضا والسعادة، فلا أجد إلا الصقيع الذي يزيد اختناقي، فأعود إلى وسادتى أشعل فيها ناري من لهيب أنفاسي، وحدى أصارع المجهول ذلك المجهول بداخلي يشدني بعيدًا عن عالمي المزيف يتطلع دائمًا إلى عالم الفضيلة هروبًا من عالم آخر أسكنه.

صراع دائم يحول بيني وبين نفسي لا يتركني أخطو خطواتي إلا وأنا مشتت متفتت الذهنِ والوجدانِ، خط فاصل بينهما لا أستطع رؤيته بوضوح، ذلك الخط الذي يزهق الوجدان، فى انتظار تلك اللحظة الحاسمة التي تغير مجرى حياتي.

فأعود مرة آخرى إلى تلك النافذة لأتطلع بها إلى عالم آخر أبحث فيه عن ملجأ للهروب أو الطمأنينة، أجد شيء من بعيد يتحرك فى الطريق كنورٍ أو طيفٍ براقٍ، فلا يهم أذا كان غريب أو صديق ينظر إلي نظرة مليئة بلومٍ وغضبٍ، كأنه يريد أن يقول شيء لا أعرف ما هو، ولكن دون تفكير أطفأت سيجارتي وارتديت معطفي وذهبت منطلقًا إلى ذلك الغريب.

يسكُنني خوفٌ لكن لعله هو الأمل المنتظر، فسألته فى حالة من ريب: أجئت من اجلى ؟! فلم يرد وكأن شيئًا فى حلقه يمنعه عن الكلام، فكررت السؤال فلم يرد مجددًا وكأن شيئًا في أذنه يمنعه عن السماع، فزاد غضبي على خوفي فانطلقت نحوه أكثر وسألته بصوت يسكنه غضب السنين: من أنت؟! وماذا تريد؟! فرد بابتسامة بلهاء تخفي الكثير من المعاني الباردة كبرودة ديسمبر، ابتسامته كادت على الاختفاء فقلت له: هل أنت حقيقى أم وهم داخل عقلي؟! هل جئت للنصيحة أم للعتاب؟! هل أنت بشرًا أم جئت من السماء؟! هل أنا أهذي أثر تجرعي الكثير من مرار الدنيا؟!

فرد علي بازدراء: أما زلت تسأل؟! أما زلت تنتظر من ينتشلك من وحل أفكارك إلى دنيا الهناء والسعادة؟! لكي تعرف من أنا انظر الى المرآة، انظر داخل أعماقك ستجد حل يداوى لك تلك المعاناة، ولكن سأقول لك نصيحتي: لا تنتظر شيئًا من غرباء، في يدك أنت وحدك تظل مستكينًا أو تصل للهدف المرجو المنشود، صراعك أنت من أشعله وأنت من بيده إخماده، مد يديه يعطيني شيئًا فمددت يدي لالتقطه لا أرى شيئًا، فقط الهواء! فقال: أما زلت تسأل من أنا؟! أم تريد أن يجيب لك الغرباء؟! فأبتعد ذلك الغريب حتى أبتلعه المكان، فأسرعت نحو غرفتي وأنا أجهش بالبكاء فعانقت وسادتي أُخفى فيها ملامح الخوف، ينتابني شعور بالنظر إلى المرآة، أقدامي بالكاد تحملني أصابها الوهن والعجز فجأة، يشدني شعور بأن أنظر إلى المرآة، كما نصحني الغريب ولكن أخشى شيئًا لا أعلم ما هو ولكنني أخشاه.

فقتلت خوفي وتركت تلك الوسادة الحمقاء وعزمت أن أقاوم ذلك الشيء الخفي الذي أخشاه فقاومت واقتربت شيئًا فشيئًا نحو المرآة وفى كل خطوة أنزع عن كاهلي حمل صراع

نفسي، فتخف أقدامي حتى انطلقت سريعًا نحو المرآة كنسمة خفيفة رقراقة، فأنظر وإذ أرى فى المرآة ذلك الغريب! ولكن هذه المرة يبتسم ابتسامة حقيقية وفى عينيه شيء من أمل وفرح وسعادة.

****

صراع (خاطرة)

****

خرجت من بين تلك الفكوك المفترسة مفتتة هشة، وجدتني ملقاه فوق أرض لا تقل طراوة مني، أحاول النهوض بآخر ذرة قوة فيّ، فلم أستطع، لم أستطع حتى أن أحاول، فكيف حال الطيور بدون أجنحتها؟ أظنها ستحاول حتى النهوض ستسعى بكل ما رزقت من فِطرة فُطر بها الطير حتى ينبت له منقار وجناحين كما تفعل الصقور، لكنني لستُ صقرًا، لستُ ذلك الحي الذي يشق جداريات المحن والأهواء ولستُ ذلك الميت الذي يُدعى له بالرحمة فيرحم، أنا تلك الذرة الملقاه فوق رمال اختلطت ببعض حبات المطر فالتحمت رغمًا عني مع الباقين أمثالي، الكل في تلك الكتلة الرخوة متلاصق، الجميع يصرخ ويقتطعون أجزاء من أجسادهم كي يتحرروا من ذلك الالتصاق المميت، وإن فعلت؛ هرولت كي أنجو بالباقي مني، ولكن تلك الأرضية تحت أقدامي قد أوقعت عقد اتفاق مع ...، مع من لا أعرف؟! لكن هناك بالتأكيد من يسعى لذلك، وقد أتقنت اللعبة

فأصبحت تتمايل تحتي، كموج بحر يعلو ويهبط وأنا في أمواجها كقارب قديم بلا شراع بلا مجداف، فطاوعتها رغمًا عني، كانت تعزف ألحانها وكنت أتمايل رقصًا معها في تناغمٍ تام، تارة أنهض فأقع على ظهري فوق هضاب الماضي الأليم، وتارة أقع بوجهي فوق سراب المستقبل المهيب، وفي وسط تلك الحروب الدائرة أبحث عن مأوى، نعم ما زلت أبحث عن الخلاص! رغم رقصات العذاب والفقد مازال هناك جزء حي داخلي ينشد الحياة في سلام أو الموت في سلام.

أخبرني الشيطان يومًا ما أنني لست إلا طينًا، جئت من تراب، تفاخر بكونه خلق من نار، اغتر فأصابه كبر، حاول مرارًا أن يقلل من كوني إنسانًا، وسوس لي بأنه الأقوى، فصدقته، نعم صدقته كنت وقتها ضعيفًا لم يكتمل نموي بعد، أقصد ذلك النمو الروحي، كنت شفافًا لدرجة جعلته يتمكن مني ويتغلغل داخلي بقوة، أوهمني الشعور بالنشوة والفرحة والأمان، حتى تحولت تلك الشفافية إلى السواد كسواد نيته، طوال الوقت أشعر وكأن هناك ما ينقصني كي تكتمل روحي، زادت سيطرته وبطشه وقلت آدميتي، لا بد من خلاص.

لابد أن ألبي تلك الرغبة المُلحة فيّ، تلك الفِطرة التي فُطرت عليها، فطرة! نعم فطرة لدي فطرة كتلك الطيور، لقد بدأت أفهم الآن!

حقًا يا له من شعور جيد وقد بدأت مداركي تعمل وتستنفد كل ما فيها من عقل وفكر ومنطق و...، لحظة واحدة تلك الفكوك المفترسة كانت لأبناء الشيطان، حين بدأت أستشعر قوتي سلطهم عليّ! وما تلك الأرض الهشة التي وقعت عليها إلا أكاذيبهم ووسوساتهم، لم أكن قاربًا بلا مجداف بل كنت إنسانًا بلا إيمان، وبالتالي أصبحت كحبة رمل ملقاه، نعم قد تواطأ الجميع مع الشيطان، رأس الشر الذي عقد عقوده وسن أنيابه.

قد فهمت، والآن عليّ الفرار من ذلك كله، إلى النور الذي ينتشلني من ذلك الضياع، فكيف الفرار من تلك الملحمة، أبصرت جميع الاتجاهات، لا شعاع ولا بصيص نور، صرخت بقوة، تردد صدى صوتي في جميع الأركان، صرخت أكثر فأكثر وفي كل مرة أهدأ قليلًا، حتى الصرخة الآخيرة أطلقتها فاهتز جسدي كله وبدأت أرى النور يشع من قلبي، يزداد إشعاعًا حتى أنار الكون كله، وصل للسماء

فبادلتني نورًا ورأيت للسماء أبوابًا تفتح، ورأيت السحاب في صفائه كالياسمين يتلألأ بقطرات الندى، فأنزل المطر كحبات من لؤلؤ و ريحان، أمطرت فأخمدت نيران قلبي، أمطرت فكانت وبالًا فوق رؤوس الشياطين فهربوا؛ وبقيت أنا وسط زهور من سلام وآمان وطمأنينة أنبتت في الكون كله وفي قلبي.

****

فهرس المحتويات:

عن الكاتبــة ٣

إهـداء.. ٤

مقدمـة.. ٥

وكان الوداع الآخـير.. ٦

هجرة غير شرعية.. ١٣

انقباضة قلب ١٧

قصِة كتابة قصَة ٢٤

نبوءة رسلان ٣٢

كلب على الرصيف.. ٤٤

الرسالة الأخيرة.. ٤٩

الوحش الأسود.. ٥٥

كذَبَت عليّ أمي ٦٠

أحلام مبعثرة ٦٢

غـربــاء ٦٤

صرخات مكتومة.. ٧٢

اختبـاء ٧٦
عقد من لـؤلـؤ ٨٢
كامل الأوصاف..... ٨٨
زينـة..... ٩٧
خلف أوراق البطاطا ١٠١
قبر من الأحياء ١٠٦
قصة حياة ١١٥
غريب في الليل (خاطرة) ١١٧
صـراع (خاطرة) ١٢١